Route Educational & Social Science Journal

Volume 6(9); October 2019

Artical History

Received/ Geliş	Accepted/ Kabul	Available Online/yayınlanma
29.09.2019	10.10.2019	31.10.2019.

الزيتونة والقرويّين: دراسة مقارنيّة

نجاة الطاهر قرفال: جامعة الزيتونة–تونس

الملخّص

إنّ النظر في المؤسّسات الدينيّة قصد التعريف بها والتعرّف على الأدوار التي نهضت بها يكتسي أهمّيّته من جهة كونه يميط اللثام عن البنية الفكريّة الموجّهة لهذه المؤسّسات وأثر تلك البنية في نشأة المجتمع وبناء الحضارة. ولا شكّ أنّ جامع الزيتونة الذي أشعّ بحضوره في بلاد المغرب الإسلاميّ منذ القرن الأوّل للهجرة وكذلك جامع القرويّين أو بالأحرى القيروانيّين في منتصف القرن الثالث للهجرة، كانت لهما وظائف كثيرة، تعنينا منها، هنا، الوظيفة العلميّة التعليميّة. تمرّ عمليّة الكشف عن المؤسّسة، حتما، عبر التعريف بها، بالتسمية والعمارة الفنّيّة. وكذلك التعريف بزمن النشأة والتأسيس والمراحل التي شهدتها والوظائف الموكلة إليها. إذ لا يقبل، عقلا، تأسيس جامع الزيتونة ومن بعده جامع القرويّين لغايات تعبّديّة صرف. فالذين قاموا عليهما وأقاموا فيهما العلماء كانوا، لا ريب، يستهدفون نشر العلوم والمعارف وربط الصلات بين مختلف بلاد الإسلام الشرقيّ منها والغربيّ. وتبدو الصلة متينة بين جامع الزيتونة وجامع القرويّين من خلال النقاط المتقدّمة. ففي كثير من الأحيان لا نقف على فرق بينهما، إن استثنينا المكان، حتّى في وضعهما أيّام الحماية الفرنسيّة على كلّ من المغربين الأدنى: تونس والأقصى: المغرب. لقد نهضا بدور حقيقيّ في حفظ المخزون التراثيّ في الغرب الإسلاميّ. ومن ثمّ في المغرب الإسلاميّ.

الكلمات المفاتيح: المؤسّسة التعليميّة الدينيّة– الزيتونة– القرويّين– المقارنة– المغرب الإسلاميّ– الاحتلال الفرنسيّ.

Abstract

The consideration of religious institutions in order to publicize them and to recognize the roles they have played is important in that it reveals the intellectual structure directed to these institutions and the impact of that structure on the emergence of society and the building of civilization. There is no doubt that the Zaytuna mosque, which has been radiating in the Islamic Maghreb since the first century of migration, as well as the mosque

of Al-Qarawiyyin or rather Kairouaniyyine, in the middle of the third century, had many functions, Here we are concerned with the educational scientific function. The process of disclosure of the institution, inevitably, through the definition, go through the designation and artistic architecture. As well as the definition of the time of establishment and establishment and stages witnessed and the functions assigned to it. It does not reasonably accept the establishment of the Zaytuna mosque and then the mosque of Al-Qarawiyyin for purely devotional purposes. Those who founded them and established the scholars were undoubtedly aimed at spreading knowledge and knowledge and linking the links between the different countries of East and West Islam. The link between the Zaytuna Mosque and the Al-Qarawiyyin Mosque appears to be strong through the advanced points. Often we do not stand on the difference between them, if we exclude the place, even in the status of French protection days on both the lower Maghreb: Tunisia and Al-Aqsa: Morocco. They have played a real role in preserving the heritage of the Islamic West. And then in the Islamic Maghreb.

Key words: Religious educational institution - Zaytouna - Al-Qarawiyyin - Comparative - Islamic Maghreb - French occupation.

المقدّمة:

يندرج هذا البحث في إطار محاولة الكشف عن إحدى الحلقات المفقودة[1] من تاريخ المؤسّسات الدينيّة في العالم الإسلاميّ، وبصفة خاصّة: الزيتونة والقرويّين إلى حدود الخمسينات من القرن العشرين، وتحديدا إلى ما قبل الاستقلال لأنّ ما بعد ذلك يمثّل مرحلة أخرى مختلفة تماما.

سؤالان مفصليّان يحدّان البحث. أمّا الأوّل فلِم الزيتونة والقرويّين؟ وجوابه من ثلاثة وجوه. وجه ماثل في كونهما تشكّلان إرثا له قيمته في نسج المشهد الحضاريّ لكلّ من تونس والمغرب. ووجه باد في كونهما مؤسّستين دينيّتين عرقيتين. والثالث أنّهما نهضتا بأدوار معرفيّة اخترقت مختلف المجالات وعبر حقب متتالية في تاريخ البلدين. أمّا السؤال الثاني: فلِم منهج المقارنة؟ وبأيّ معنى؟ نقول: لما كانت المقارنة من مبادئ التفكير الإنسانيّ، فإنّها قديمة قدم وجوده. وقد لجأ كلّ من أرسطو وأفلاطون إليها وسيلةً لإجراء المحاورات. ولئن كان منهج المقارنة أعلق بالدراسات القانونيّة والاجتماعيّة، فإنّ مزيّته في إتاحة الدقّة والتعمّق واكتشاف النقائص. والمقارنة، في حقيقة أمرها، مقايسة بين ظاهرتين أو أكثر، شرطها الأوّل كونهما من جنس واحد وشرطها الثاني ملاحظة أوجه التماثل أو التفارق بينهما.

لن نسلك، في إجراء المقارنة الطريقة الأفقيّة التي تقتضي النظر في كلّ ظاهرة على حدة، خشية الوقوع في التكرار. وستكون المقارنة رأسيّة تتناول كلّ جزئيّة في كلتا الظاهرتين دفعة واحدة، تفكيكا للمعلومة. ومن ثمّ تعليل ما بين الظاهرتين من تماثل أو تفارق. خطّة البحث، عدا المقدّمة والخاتمة، ثلاثة مفاصل: المؤسّسة في

[1] لمزيد التعمّق، انظر: قرفال، نجاة الطاهر، **العلاقات العلميّة بين الزيتونة والقرويّين خلال القرنين 19 و20 الميلاديّين**، رسالة ماجستير، إشراف: نجم الدين الهنتاتيّ، جامعة الزيتونة، المعهد العالي للحضارة الإسلاميّة، السنة الجامعيّة: 2015-2016، صص 6-18-21.

شخصها: تعريفا ومتعلّقات، فالمؤسّسة في بيئتها: التأثير والتأثّر، ثمّ المؤسّسة في غير بيئتها: الإشعاع والاستقطاب.

أوّلا: المؤسّسة في شخصها: التعريف والمتعلّقات:

لا نقدّم، هنا، دراسة أثريّة ولا تاريخيّة للمؤسّستين الدينيّتين: الزيتونة والقرويّين. فهاتان المؤسّستان خضعتا، كلتاهما، إلى جملة من الإصلاحات والترميمات والإضافات. فأمّا جامع الزيتونة فقد تتبّع محمّد العزيز ابن عاشور في كتابه **جامع الزيتونة: المعلم ورجاله**[1] تاريخ نشأة هذا المعلم وتطوّره عبر العصور هندسيّا وعلميّا وإداريّا. وقد أماط عبد العزيز الدولاتي اللثام في كتابه **الزيتونة عشرة قرون من الفنّ المعماريّ التونسيّ**[2] عن فنّ العمارة والإحداثات المعماريّة في جامع الزيتونة. وأمّا جامع القرويّين بفاس المغرب فقد عُني بالكتابة فيه كثير من أعلام المغرب. وأوفى الأعمال فيه، فيما علمنا، مصنّف عبد الهادي التازي: **جامع القرويّين :المسجد والجامعة بمدينة فاس: موسوعة لتاريخها المعماريّ والفكريّ**[3]. ومن هنا نبتدئ بتلمّس فرق أوّليّ في مدى العناية بالمعلمين من جهة الكتابة الموسوعيّة. فالزيتونة تفتقر إلى عمل موسوعيّ تجتمع فيه المعلومات الدقيقة والمختصّة والموثّقة التي جاءت متفرّقة في مظانّ كثيرة.

أ- التعريف:

*** التسمية:**

- وأمّا تسمية "الزيتونة" فقد ذكر محمّد العزيز ابن عاشور أنّها كانت لأحد أسباب ثلاثة. الأوّل: بناء المعلم في فضاء زياتين. والثاني: وجود زيتونة واحدة في فضاء البناء بها سمّي المعلم. والثالث يعود إلى رواية مسيحيّة: كانت بالقرب من الموضع كنيسة قديمة تضمّ رفات القدّيسة "أوليف" (Olive)[4].

- القرويّين: خصّ عبد الهادي التازي القرويّين بمصنّفه السالف الذكر. واختزل مسألة التسمية في قوله: "كلمة القرويّين تخفيف للفظ القيروانيّين نسبة إلى القيروان وهو معهود في كتب الفقه والنوازل."[5] ويثمّن ذلك الإنجاز ولا يجد في التسمية إشكالا.

***التأسيس:**

-الزيتونة: اختلفت المصادر في زمن تأسيسها اختلاف تدقيق. هناك من نسبها إلى حسّان بن النعمان

[1] ابن عاشور، محمّد العزيز، **جامع الزيتونة: المعلم ورجاله**، دار سراس للنشر، تونس، 1991.

[2] الدولاتي، عبد العزيز، **الزيتونة عشرة قرون من الفنّ المعماريّ التونسيّ**، تونس، 1966.

[3] وهو في أصله رسالة بحث نال بها صاحبها درجة دكتورا. دعّمه بالجداول والوثائق والصور والرسوم. انظر: التازي، عبد الهادي، **جامع القرويّين :المسجد والجامعة بمدينة فاس: موسوعة لتاريخها المعماريّ والفكريّ**، ط 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1972.

[4] والحفريّات وحدها قادرة على ترشيح أحد هذه الأسباب لمن رام التحقيق في مسألة التسمية.

[5] التازي، عبد الهادي، **جامع القرويّين**، ج 1، ص 56.

(ت86هـ) فاتح مدينة تونس في حدود سنة 79هـ/698-699م. وهناك من نسبها إلى عبيد الله بن الحبحاب (توفّي بعد سنة 123هـ). وقد حاول محمّد ابن الخوجة (ت1942) حلّ الإشكال في كتابه **صفحات من تاريخ تونس**[1] بتوضيح الفارق بين المؤسّس الأوّل والمثبّت للتأسيس[2].

-القرويّين: لا اختلاف في زمن تأسيسها ولا في المؤسّس. يسرد ابن أبي زرع المؤرّخ الفاسي خبر قدوم أهل القيروان بلاد المغرب مادحا المؤسّسة تثمينا لفعلها. فيقول: "... فأتى وفد القيروان إلى إدريس ﷺ في جمع كثير بعيالهم وأولادهم فأنزلهم حوله بعدوة القرويّين. وكانت فيهم امرأة مباركة صالحة تكنّى أمّ البنين... فعزمت على بناء مسجد..."[3].جاء في موسوعة التازي الخبر ذاته مع تأكيد لمصدر التمويل واختلاف في الصياغة: "كان في عداد المهاجرين القيروانيّين... أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الفهريّ القيروانيّ... ترك ثروة طيّبة كريمتيه فاطمة أمّ البنين ومريم... ولقد ابتدأت أمّ البنين حفر الأساس في أوّل شهر رمضان من سنة خمس وأربعين ومائتين (859م)"[4]. ويعتبره إنجازا عظيما. فيقول: "لقد دخلت فاطمة التاريخ بفعلها العظيم هذا"[5]. إنّ الاختلاف في شأن سنة تأسيس جامع الزيتونة لا يثير أيّ شبهة حول أسبقيّته لغيره من منارات العلم – باستثناء جامع عقبة بالقيروان– في بلاد الإسلام بشمال إفريقيا. فهو على كلّ حال كان حاضرا عينا لا خبرا في وقت مبكّر جدّا، أي في الفترة الممتدّة بين نهايات القرن الأوّل الهجريّ وبدايات القرن الثاني.

* **الموقع**: تقع الزيتونة في قلب العاصمة التونسيّة وتحديدا في المدينة العتيقة. وتقع القرويّين في القطاع الغربيّ من مدينة فاس التي أصبحت، بعد انتصاب الحماية (1912) عاصمة المغرب العلميّة. ويتماثل الموقعان في كونهما مركزيّين يتّصلان بالحياة في مختلف أنشطتها الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة. فهما قاب قوسين أو أدنى من مختلف المؤسّسات الاجتماعيّة الأخرى. ولعلّ هذا الموقع هو الذي ضمن لهما البقاء ومن ثمّ الاستمرار في العطاء المعرفيّ. *

العمارة: نشير في مسألة العمارة إلى ما شهدته المؤسّستان من إصلاحات وترميمات وإضافات عبر تاريخهما الطويل. فهذه الزيتونة تبلغ مساحتها حوالي 5000 متر مربع، ويقدّر المغطّى منها ب1344 مترا مربعا. وقد شهدت منذ تأسيسها جملة من التحسينات والترميمات المختلفة في عهد الأغالبة والحفصيّين والمراديّين والحسينيّين آخر ملوك تونس. ومن الزيادات الأغلبيّة فيها إقامة قبّة أمام المحراب. ومن الترميمات الزيريّة فيها ما

[1] ابن الخوجة محمّد، **صفحات من تاريخ تونس**، تقديم وتحقيق: حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

[2] وهذا عين ما كان ذهب إليه ابن الشمّاع (ت861هـ/1457م) في كتابه: **الأدلّة البيّنة النورانيّة في مفاخر الدولة الحفصيّة**، تحقيق وتقديم: الطاهر بن محمّد المعموري،الدار العربيّة للكتاب، 1984. ص 36. وابن أبي دينار، محمّد (ت1111هـ/1690) في كتابه: **المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس**، مطبعة الدولة التونسيّة بحاضرتها المحميّة، 1286هـ، ط1، ص7. وابن أبي الضياف، أحمد في كتابه: **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، الدار العربيّة للكتاب، 1999، ج1، ص90.

[3] ابن أبي زرع، علي الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 54.

[4] التازي، عبد الهادي، **جامع القرويّين**ج 1، ص 47.

[5] م. ن، ص56.

كان من زخرف في قبّة البهو. ذكره ابن الشمّاع في مدار حديثه عن فضائل أبي عبد الله المنتصر(1249م-1277م) في الفصل الثالث: سقاية جامع الزيتونة"[1]. وقد تولّت الأسرة البكريّة في القرن الحادي عشر الهجريّ بناء الرواق الشرقيّ في صحن المسجد.

وهذه القرويّين قد تحوّلت، حين ضاقت بقاصديها من طلاّب العلم، من مسجد صغير إلى منشأة كبيرة ذات مرافق كثيرة. لقد شهدت عمليّات ترميم وتوسيع ولا سيّما في العهد الزنانيّ والمرابطيّ والمرينيّ. تعدّدت أبوابها منذ عهد يوسف بن تشفين حين تمّت توسعة الجامع. يقول صاحب **الأنيس المطرب**: "وعدد أبوابه خمسة عشر بابا كبيرا لدخول الرجال وبابان صغيران للنساء"[2]. كانت مساحتها 250 مترا مربّعا وأصبحت في عهد الأمير الزنانيّ أحمد بن أبي بكر 2748 مترا مربعا، تقريبا. يقول التازي: "تبلغ مساحة القرويين اليوم نحو 5845 مترا مربّعا"[3]. وقد تمّ توسيعها بفضل ضمّ مساحات من الأراضي المجاورة لمبناها. يضاف إلى ذلك الحرص على تأهيل مجال المياه القديم قصد توفير هذه المادّة الحيوية دون انقطاع.

هذه مجرّد عيّنات قليلة تشي بالعناية الموصولة من لدن، الساسة خاصّة، بالمؤسّسة التعليميّة في جانبها الفنّيّ المعماريّ. وإنّ فيها دليلا بيّنا على احتفاظ الزيتونة والقرويّين بمنزلتهما الفنّيّة عبر العصور. فلم تفقدا قيمتهما الفنّيّة وهي شرط بقائهما ضمن مكوّنات المشهد الحضاريّ في كلّ من تونس والمغرب.

ب-المتعلّقات:

*** الفروع:**

- فروع الزيتونة: كثيرة. وكان لا بدّ من جمع بعضها في جدول[4] تيسيرا للنظر فيها. وكاد محمّد بن الخوجة يتفرّد بتوثيق فروع الزيتونة[5]. لقد عني بها. وقدّم فيها إفادات كثيرة. وخصّ النظر فيها بالفصل الخامس من كتابه **تاريخ تاريخ معالم التوحيد**[6]. ووسمه ب"في التعريف بمدارس طلبة العلم". وأمّا محمّد الطاهر ابن عشور فقد أشار إلى مسألةٍ تنظيميّة تخصّ المدارس حين قال: "ثمّ وضعت الدولة الحفصيّة المدارس للعلوم وأسندوا كلّ مدرسة لواحد

[1] ابن الشمّاع، : **الأدلّة البيّنة**، م. س، ص 66.

[2] ابن أبي زرع، علي الفاسي، **الأنيس المطرب**، م. س، ص 66.

[3] التازي، **جامع القرويّين**، م. س، ج 1، ص 55-100.

[4] انظر الملحق: الجدول الأوّل.

[5] وصنّف فيها محمّد الباجي بن مامي كتابه: **مدارس مدينة تونس من العهد الحفصيّ الى العهد الحسينيّ من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الهجريّ**، لم نظفر به. فأفدنا من مقال إلكترونيّ حوله: **مدارس مدينة تونس في كتاب عليّ فاخر**: مُحَمَّد بن وجب: نشر في الصباح يوم 26 - 08 - 2007. https://www.turess.com/assabah/2726

[6] ابن الخوجة، محمّد، **تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد**، تحقيق وتقديم: الجيلاني بن الحاج يحي وحمّادي الساحلي، ط 2 ، دار الغرب الإسلامي، لبنان-لبنان-بيروت، 1985، صص 277-334.

من العلماء يباشر التعليم بها ويراقب أحوال تلامذتها. وفرضوا الجرايات الكافية للمدرّسين وللتلامذة أيضا"[1].

– فروع القرويّين: خُصّصت هي الأخرى بجدول لكثرتها. وهي أكثر بكثير ممّا حوى الجدول. يقول التازي: "فروع جامعة القرويّين القديمة والجديدة الكبرى والصغرى... تصل اليوم إلى ثلاثة وثلاثين مسجدا وثلاث مائة مسجد"[2]. منها ما يزال قائما إلى اليوم في شكل متاحف.

يمكن من خلال هذين الجدولين تسجيل جملة من الملاحظات:

الأولى: عرفت كلّ من الزيتونة ونظيرتها القرويّين توسّعا وانتشارا دلّت عليه كثرة فروعهما.

الثانية: سبقت القرويّين الزيتونة في إيجاد فروع لها منذ القرن الخامس الهجريّ (مدرسة المرابطين). بينما ظهر أوّل فرع لجامع الزيتونة في القرن السابع الهجريّ (المدرسة الشمّاعيّة).

الثالثة: قيام السلاطين على إنشاء هذه المدارس الفرعيّة في غالب الأحيان.

الرابعة: دلّت هذه الفروع التعليميّة على حدوث تغيّرات اجتماعيّة. فالأندلسيّون حين لجأوا إلى المغرب وتونس أمّنوا لأنفسهم مدارس تستجيب لتطلّعاتهم.

الخامسة: وهي الأهمّ: انتقلت هاتان المؤسّستان، بفعل هذا التفريع، من الجامع إلى الجامعة. وهما شكلان مختلفان من أشكال التأسيس التعليميّ. لقد أصبحتا مركزا تعليميّا له ملاحقه التي تعود إليه بالنظر.

* **الأعلام**: مجرّد تمثيل. إذ لا يمكن حصرهم. ونقتبس من الصادق الزمرلي(ت1983)[3]عناوين التصنيف.

–السابقون: ومن الأعلام الزيتونيّين السابقين نذكر: علي بن زياد (ت183) راوي **موطّأ** مالك، ، وابن الآبار(ت568هـ): وكان مدرّسا وشاعرا وصاحب تآليف، وابن عصفور (ت654هـ) الذي قدم من إشبيليا: وقد ذاع صيته في علوم اللغة والأدب، وحازم القرطاجنيّ (ت684) الأديب الشاعر صاحب **منهاج البلغاء**، ومحمّد بن إبراهيم الآبالي (ت757هـ) البارع في علوم الرياضيّات والمنطق، وابن عرفة (ت803هـ): وهو من أئمّة المالكيّة بتونس، وابن خلدون(ت808هـ) صاحب **المقدّمة**. ومن أعلام القرويّين السابقين نذكر: الشريف الإدريسيّ السبتي (ت560هـ) عالم الفلك والجغرافيا. وكان لعلمه أثر كبير في علماء القرويين، وأبو الحسن علي بن فرحون (ت601هـ) من علماء الحساب ألّف **اللباب في مسائل الحساب**، وابن القطان (ت628هـ) من محقّقي الحديث النبويّ وحفظته. كان له أثر كبير في مدرسة الحديث المغربيّة، وأبو علي الحسن المراكشي (ت660هـ) فلكيّ رياضيّ جغرافيّ، وعبد الرحمان بن خلدون.

[1] ابن عاشور، محمّد الطاهر، **أليس الصبح بقريب: التعليم العربيّ الإسلاميّ: دراسة تاريخيّة وآراء إصلاحيّة**، ط 1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة– دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 2006، ص 76.

[2] التازي، **جامع القرويّين**، م. س، ج3، صص 681–685.

[3] انظر: الزمرلي، الصادق، **أعلام تونسيّون**، ط1، تقديم وتعريب: حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت–لبنان، 1986.

-التابعون: ومن الأعلام الزيتونيّين التابعين: **محمود قبادو** (ت1871م). الشيخ السيد أبو الثناء مُحَمَّد مفتي المالكية في الحاضرة وحامل لواء البلاغة والنحو والأدب، درّس بالمدرسة الحربيّة بباردو وبجامع الزيتونة. وصالح النيفر (ت1874) مدرّس وإمام وقاض ومفتي الديار التونسية، واسمه الكامل أبو الفلاح صالح النيفر. وصاحب **الإتحاف** ابن أبي الضياف (ت1874). ومن أعلام القرويّين التابعين: أبو عبدالله مُحَمَّد التاودي بن مُحَمَّد الطالب بن سودة (ت1209هـ) صاحب كرسيّ التفسير في وقته. وأبو عبد الله محمّد الكردودي الفاسي (ت1268هـ) تولّى القضاء، وهو صاحب **الشرح على اصطلاح القاموس**. وأحمد بن خالد الناصريّ (ت1897) صاحب **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**. وهو مصنّف لا ينافس في بابه.

-المعاصرون: ومن الأعلام الزيتونيّين المعاصرين: أبو القاسم الشابّي شاعر تونس (ت1934) والطاهر الحدّاد (ت1935م) المتحصّل على شهادة التطويع من الزيتونة وصاحب مؤلّفين في الفكر الإصلاحيّ: **امرأتنا في الشريعة والمجتمع**، سنة 1930م، و**التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة**. ومحمّد الفاضل ابن عاشور(ت1970) الذي جمع بين فنون ثلاثة: فنّ التدريس وفنّ التأليف وفنّ االخطابة[1]، ومحمّد الطاهر ابن عاشور(ت1973) شيخ المالكيّة بالجامع الأعظم وصاحب **التحرير والتوير**. ومن أعلام القرويّين المعاصرين نذكر: محمّد بن أحمد الحسنيّ العلميّ الفاسيّ (ت1903) مختصّ في العلوم الطبيعيّة.ألّف في أسماء النباتات **ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس**، ومحمّد الحجويّ (ت1956م) صاحب **الفكر السامي في الفقه الإسلاميّ**، وأبي شعيب الدكاليّ (ت1937م) من أعلام القرويّين الذين كان لهم أثر كبير في الجيل اللاحق. وكان كثير التنقّل شرقا وغربا، وعبد الرحمان بن زيدان (ت1946) مؤرّخ الدولة العلويّة وصاحب **الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**.

*** العلوم وخزانة الكتب:**

-خزائن الزيتونة: خصّ محمّد ابن الخوجة جامع الزيتونة وخزانته بفصل[2] وسمه ب"خزائن الكتب بجامع الزيتونة"[3] ابتدأه ببيان قيمة الكتب عند المسلمين ترجمة وتدوينا. ثمّ مثّل لخزائن الكتب من حقب مختلفة من تاريخ الإسلام وصولا إلى الخزانة القيروانيّة التي: "ذهبت شذر مدر أثناء الفتن التي تناولت القيروان في القرنين الرابع والخامس..."[4]. ويمضي إلى بيان القول في خزانة جامع الزيتونة التي شهد إنشاؤها والعناية بها مراحل متعدّدة: "فأوّل ما ظهر من ذلك الخزانة العامّةالتي أحدثها أبو فراس عبد العزيز الحفصيّ في 797 (1395)"[5]. وقد

[1] انظر: قرفال، نجاة، **سفراء الزيتونة والمغرب: الخطاب والأثر**، مداخلة قدّمت في ندوة: تاريخ الزيتونة في النصف الأوّل من القرن العشرين: الزيتونيّون في مواجهة قضايا عصرهم: وحدة بحث تاريخ الزيتونة، المعهد العالي للحضارة الإسلاميّة، جامعة الزيتونة، 29-30 نوفمبر 2016.

[2] ابن الخوجة، محمّد، **صفحات من تاريخ تونس**، م. س، صص 283-308.

[3] نشرتها المجلّة الزيتونيّة في عدد رمضان 1355هـ / نوفمبر 1936م، الجزء الثالث، المجلّد الأوّل، صص 136-139.

[4] ابن الخوجة، محمّد، **صفحات من تاريخ تونس**، م. س، ص 298.

[5] م. ن، ص. ن.

تناوب أحفاد أبي فراس هذا على تزويد خزانة الزيتونة بالكتب. فعل ذلك السلطان أبو عمرو عثمان (1435) ومن بعده أبو عبد الله محمّد الذي أسّس "في أوائل المائة العاشرة المكتبة المعروفة العبدليّة"[1]. وفي عام 1572 كانت الهجمة الإسبانيّة التي روت الكتب أثرها المدمّر على جامع الزيتونة ولا سيّما ذخائر الكتب التي فيه. يقول ابن الخوجة: "وأمسى العلم بتونس كشمس على مغيب... وممّا زاد نجمه أفولا تعاقب الأوبئة في ذلك العهد"[2]. وكان يجب انتظار المشير أحمد باي الأوّل الذي عمّر عام 1840 الزيتونة "بخزائن الكتب النافعة"[3]. وقد خطب إبراهيم الرياحي على منبر الزيتونة خطبة حماسيّة في فضل العلم والعلماء والثناء على صنيع الأمير. وقد تألّفت المكتبة الأحمديّة من روافد متنوّعة: مقتنياته وكتب خزانة بيت الباشا بباردو، وكتب الوزير حسين خوجة باعها دائنوه ومكتبة الرياحيّ بعد وفاته تحبيسا. وقد كان جمعها "بنفسه في رحلته لفاس (1803) وللأستانة (1838)...وسوّغ إعارتها لأهل العلم على شروط. وأقام لها وكلاء وحفظة"[4]. وهكذا تتالت عناية البيت الحسيني بخزانة جامع الزيتونة تزويدا لها بنفائس الكتب وبمكتبات الأعلام ورجال الدولة مثل ابن أبي الضياف والوزير مصطفى خزندار مكتبة محمّد بن مصطفى بيرم، أرسلها بعد وفاته بمصر ابنه مصطفى بيرم. هذا بالإضافة إلى ظاهرة التحبيس التي أخذت في الانتشار. إلى هذا كلّه انضافت المكتبة العبدليّة التي أنشأها الصادق باي. غير أنّ الاهتمام بإعداد فهرس لخزائن الكتب في الزيتونة لم يكن بمبادرة داخليّة وإنّما هبّ إلى تلك المهمّة الخطيرة بعض من المستعربين. فخزائن الكتب في جامع الزيتونة شهدت عناية المستعرب برنار روا (Bernard Roy) (1845-1919). وكان "كاتبا عامّا للعدل بتونس وسمّي وزيرا مفوّضا بها تقلّب في وظائف بالبريد من 1864 إلى 1884 وعيّن عونا قنصليّا بالكاف ثمّ كاهية قنصل ومراقبا مدنيّا ثمّ كاتبا عامّا ثمّ قنصلا عامّا ووزيرا مفوّضا. اشتغل بالمخطوطات اللاتينيّة والعربيّة"[5]. وضع بالاشتراك مع محمّد الحشايشي: فهرس المخطوطات التاريخيّة المحفوظة في مكتبتي جامع الزيتونة: العبدليّة والأحمديّة[6]. وصرّح محمّد ابن الخوجة بمساهمته في هذا العمل التوثيقيّ[7]: "ولقد جمع المستعرب مسيو روا (Roy) كاتب الدولة العامّ... جميع ما حفظته الأزمان... ورسم له خريطة بالطريقة الهندسيّة... وقد شاركته في تحرير ذلك الفهرس"[8].

[1] م. ن، ص. ن.
[2] م. ن، ص 299.
[3] م. ن، ص 301.
[4] م. ن، ص 303.
[5] الحشايشي، محمّد بن عثمان، **الهديّة في العادات التونسيّة**، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي ومحمّد العنّابي، المطبعة الرسميّة للجمهوريّة التونسيّة، 2002، ص28 (هامش 18).
[6] العقيقي، نجيب، **المستشرقون موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراساتهم**، دار المعارف، مصر، 1964، ص222.
[7] ابن الخوجة، محمّد، **تاريخ معالم التوحيد**، م. س، ص 46.
[8] ثمّ يورد في الهامش 15 من الصفحة 54 اسم الفهرس: **المنتخب من فهرس المخطوطات والمطبوعات العربيّة لمكتبة الجامع الأعظم**،:

– خزائن القرويّين: خصّ علي الجزنائي جامع القرويّين وخزانته في كتابه **جنى زهرة الآس** [1] بفصل تناول فيه ضروب الكتب التي ضمّتها. ويعود إنشاء هذه الخزانة، بالإضافة إلى خزانة المصاحف النادرة الخطوط، إلى السلطان المرينيّ أبي عنان. يشير الجزنائيّ إلى أمر يتعلّق بالكتب في جامع القرويّين على غاية الأهمّيّة يتمثّل في أنّ فعل السلطان يعدّ مصدر إلهام وقدوة بالنسبة إلى العامّة. يقول: ثم لم تزل الملوك والسّوقة تقف الكتب على خزانة القرويين بعد ذلك حتّى اجتمع بها من المجلّدات العلمية والأدبيّة والدينيّة مالا يدخل تحت حصر ولا يستوفيه عدّ ولا حساب"[2]. ثمّ يعدّد أصناف المؤلّفات مؤكّدا سمة الشمول فيها: "... الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان، وغير ذلك من العلوم على اختراعها وتنوّع ضروبها وأجناسه"[3]. والملاحظ أنّ خزانة القرويّين بهذا التصنيف توفّر شتّى أنواع العلوم ممّا يعرف اليوم بالإنسانيّات والطبيعيّات. ويبدو أنّ إجراء آخر صحب هذا الإنجاز. يقول الجزنائيّ: "ووقفها ابتغاء الزّلفى ورجاء ثواب الله الأوفى، وعيّن لها قيّما لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة. وأجرى له على ذلك جراية مؤبّدة تكرمة وعناية وذلك في جمادى الأولى سنة 750هـ "[4]. ولا يختلف الأمر بالنسبة إلى القرويّين فيما يخصّ فهرسة نفائس المخطوطات وذخائر الكتب في خزائنها. فلم يتصدّ أبناء القرويّين لهذا العمل وإنّما سارع إلى القيام به المستعرب ألفرد بل (Alfred Bel) (1873-1945) فأعدّ فهرس الكتب العربيّة لمكتبة جامع القرويّين بفاس[5]. ويرى بعضهم[6] أنّه لم يكن ليتوجّه إلى هذا العمل لغايات معرفيّة صرف بقدرما كان يودّ الكشف عن مكمن القوّة في المغرب من جهة المؤسّسة العلميّة والوسائط المعرفيّة المعتمدة في تلقين العلوم الدينيّة.

يبدو من خلال ما تقدّم في شأن خزائن الكتب بكلّ من الزيتونة والقرويّين أنّ خزائن الأولى شهدت اضطرابات كثيرة رغم كثرة الجهود التي كان يبذلها الساسة وخاصّة زمن الحكم الحسينيّ. وهذا بخلاف ما شهدته خزائن القرويّين من استقرار أسفر عن تراكم الكتب ومن ثمّ التراكم المعرفيّ. كما يبدو انصراف بعض المستعربين إلى الاهتمام الشديد بفهرسة خزائن الكتب للوقوف على المخطوطات النادرة والمصنّفات الكثيرة ذات العلوم المتنوّعة. لقد اطّلعوا على ذلك. ودوّنوا. ثمّ نشروا ما دوّنوه. فَعَلا كعبُهم وصاروا أهل اختصاص في ذلك الفنّ.

Bernard. Roy, ***Extrait du catalogue des manuscrits et des imprimés de la Grande mosquée de Tunis***, Tunis : Imprimerie Générale, 1900.

[1] الجزنائيّ، علي، **جَنَى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية – الرباط، ط2، 1991.

[2] م. ن، ص76.

[3] م. ن، ص. ن.

[4] م. ن، ص. ن.

[5] Alfred Bel, ***Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la mosquée d'El-Qarouiyîne à Fès***, Fès, Impr. municipale, 1918.

[6] Huart Clément. ***Alfred Bel. Inscriptions arabes de Fès. Extrait du Journal Asiatique (1917-1919)***. In: Journal des savants. 19e année, Juillet-août 1921. pp. 184-186.

*

بيوتات العلم:

–الزيتونيّة: بيوتات العلم في **تونس** عديدة. ولئن توفّر **كتاب العمر** للمؤرّخ التونسيّ حسن حسني عبد الوهّاب على أعلام تونس عبر العصور، فإنّ المنهج المتّبع في الكتاب كان يقدّم العلماء من خلال الاختصاص العلميّ كالفقه والأدب واللغة وعلم الفلك[1]. فهو لا يسعفنا في طلب بيوتات العلم التونسيّة. ولا يسعفنا كذلك، في الشأن ذاته، كتابا محمّد الفاضل ابن عاشور **أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي** و**تراجم الأعلام**. ورغم أنّ هذه الأعمال زاخرة بالأعلام التونسيّين وجهودهم العلميّة فإنّها لم تنتهج التدوين في بيوتات العلم في تونس. +العاشوريّة: ومنها محمّد الطاهر بن عاشور الجدّ والحفيد سفير تونس إلى الأزهر وصاحب التآليف في التفسير وعلم المقاصد والإصلاح التربويّ[2]. ومحمّد الفاضل ابن عاشور سفير تونس إلى المغرب وصاحب التصانيف الجمّة والمحاضرات الكثيرة.

+النيفريّة: ومن أعلامها الذين شغلوا خطّة مفتي الديار التونسية.: بشير النيفر (ت1960)، ومُحَمَّد الأكبر النيفر (ت1860)، ومحمّد الطيب النيفر (ت1926).

+البيرميّة: من العائلات الحنفيّة. **ومن أعلامها** محمّد بيرم الأوّل (ت1800) محمّد، كان فقيها ومتضلّعا في اللغة والبلاغة. شغل خطّة مفتي تونس. محمّد بيرم الثاني (ت1831) ابن بيرم الأوّل. عرف في علم التجويد والحديث والفقه. خلف أباه في الإمامة. درّس بالزيتونة. وشغل خطّة قاضي مدينة تونس. ومحمّد بيرم الثالث (ت1843) الذي كان على نظارة جامع الزيتونة في 1840[3]. وأمّا محمّد بيرم الخامس (ت1889) فهو الصحفيّ العلاّمة الرحّالة وصاحب **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**(خمسة أجزاء). وأمّا أحمد بن مُحَمَّد بن مصطفى بن مُحَمَّد – الأوّل – بيرم (ت1935) فهو فقيه وخطيب. كان متضلّعا من علوم اللغة وخطيبا في الجامع اليوسفي بمدينة تونس.

+الخوجيّة: عائليّة حنفيّة: "وعرفت عائلة ابن الخوجة بلقب "دار العلم" نظرا إلى عدد شيوخ الاسلام والمفْتينَ المتخرجين من سلالتها"[4]. أحمد الثاني بن محمّد بن أحمد الأوّل (ت1895) "وكان قد حارب مشروع ماشويل ماشويل Machuel الذي حاول فرض سلطته على الشؤون التّعليميّة والاداريّة بجامع الزيتونة"[5]. محمّد بن البشير بن محمّد بن الخوجة(ت1942). شغل والده خطّة رئيس القسم الأوّل بالوزارة الكبرى. دوّن رحلته إلى

[1] عبد الوهّاب، حسن حسني، **كتاب العمر في المصنّفات والمؤلّفين التونسيّين**، مراجعة وإكمال: محمّد العروسي المطوي وبشير البكّوش، ط 1، دار الغرب الإسلاميّ، 2005.

[2] ابن عاشور، محمّد الطاهر، **أليس الصبح بقريب**، م. س.

[3] ابن الخوجة، محمّد، **صفحات من تاريخ تونس**، م. س، ص 303.

[4] الموسوعة التونسيّة المفتوحة: موقع رقميّ: http://www.mawsouaa.tn

[5] مرجع نفسه.

باريس: **الابريز في مسالك باريس**، ورحلة رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة(أرمان فليار) إلى تونس سنة 1912: **الرحلة الفلياريّة**، ورحلة الباي الملك الناصر إلى باريس 1913: **الرّحلة النّاصريّة**.

– القرويّينيّة: اعتنى عبد الكبير بن هاشم الكتّاني (1931)، **زهر الآس في بيوتات أهل فاس**.

+السلاّويّة: "ومنهم فرقة المؤذّنين بمنار القرويّين منذ قديم الأعصار"[1]. وإلى هذه البيت العلميّ ينتسب شهاب الدين الناصري السلاّوي صاحب موسوعة **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**.

+الفاسيّة: "تولّى الخطابة بالقرويّين مكان والده وكان من أعيان فقهاء وقته وأجودهم"[2]. وإلى هذه البيت العلميّ ينتسب المفكّر علاّل الفاسيّ صاحب كتاب **النقد الذاتيّ**.

+الحَجْويّة: "أمّا السيّد الفقيه النبيه العلاّمة المدرّس الأحظى المؤرّخ السياسيّ الأرضى... وله مجلس تدريس بالقرويّين...وله تآليف عديدة... **مسامرة الزائر بوصف قطر الجزائر** وهي رحلة ذيّلها برحلة له إلى تونس"[3]. وإلى هذه البيت العلميّ ينتسب محمّد بن الحسن الحجوي مؤلّف **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلاميّ**.

+الدكاليّة: ومن أعلامها أبو شعيب الدكاليّ. "وكان قائما بالتدريس والخطبة والإمامة في جامع القرويّين"[4]. وكان كثير الترحال شرقا وغربا.

*المجلّة

الناطقة بلسان حال المؤسّسة: – المجلة

الزيتونية: صدر العدد الأوّل في شهر رجب 1355/سبتمبر 1936 وصدر العدد الأخير : 15 ربيع الأول 1/1375 نوفمبر 1955. ومجموع ما صدر منها من أعداد صدر يقدّر بخمسة وسبعون عددا.

– مجلّة القرويّين: وكان أوّل أعدادها عام 1989. ولم نعثر على أعدادها[5].

وتكمن أهمّيّة المجلّة بالنسبة إلى المؤسّسة عموما في توفير فضاء تعبيريّ لأنشطتها ونتاجها وغير ذلك ممّا تقتضيه أحوال المؤسّسة وتنشئ بها صلات ثقافيّة مع غيرها من المؤسّسات عن طريق نشر المقالات والردّ عليها متى كانت الحاجة إلى ذلك[6].

ثانيا: المؤسّسة في بيئتها: التأثير والتأثّر:

أ– التأثير: لا ريب أنّ الزيتونة والقرويّين كان لهما تأثير واضح خلال تاريخهما الطويل في بيئتهما. وأيّا كانت الخدمات التي تُقدّم في فضاءاتهما، فإنّهما تظلاّن فضاء يجمع بين وظائف مختلفة كالعبادة وإقامة الشعائر الدينيّة

[1] الكتّاني، عبد الكبير بن هاشم، **زهر الآس في بيوتات أهل فاس**، تحقيق: علي بن المنتصر الكتّاني، منشورات مطبعة النجاح، الدر البيضاء، ط1، 2002، ج1 صص 499-501.

[2] الكتّاني، عبد الكبير، **زهر الآس في بيوتات أهل فاس**، م. س، ج2 صص 64-88.

[3] الكتّاني، عبد الكبير، **زهر الآس في بيوتات أهل فاس**، ج1 صص 343-348.

[4] م. ن، ص59-64.

[5] قاد البحث إلى إحالتين: انظر: فارق النبهان: "أثر جامعة القرويين في تكوين الشخصية المغربية"، مجلّة جامعة القرويين العدد 11 1998/1419.+ طه جابر العلواني: "الجامعات الإسلاميّة وبناء علوم الأمة"، مجلّة جامعة القرويّين العدد 11 1998/1419، ص: 239.

[6] وقد كتب في المجلّة الزيتونيّة من علماء القرويّين، انظر: قرفال، نجاة، **العلاقات العلميّة بين الزيتونة والقرويّين**، م. س، ص105.

والتعليم. فالتأثير متعدّد بتعدّد المجالات: اجتماعيّ روحيّ وتعليميّ تربويّ. لن نفصّل القول في هذا الجانب لتوفّره في مظانّ كثيرة ولاسيّما الدوريّات. وإنّما نتناول الجانب الفكريّ الإصلاحيّ الذي يدلّ على أنّ كلاّ من هاتين الجامعتين قد تحوّلت من طور التكوين إلى طور التأثير. ويدلّ، كذلك، على أنّهما أنتجتا نماذج عالمة ذات معرفة ناقدة. نجري المقارنة، هنا، من خلال النظر في مشروعين إصلاحيّين: الأوّل لمحمّد الطاهر ابن عاشور والثاني لصنوه محمّد بن الحسن الحجوي.

* محمّد الطاهر ابن عاشور وكتابه **أليس الصبح بقريب: التعليم العربيّ الإسلاميّ: دراسة تاريخيّة وآراء إصلاحيّة**. ألّف محمّد الطاهر ابن عاشور في مسألة الإصلاح التعليميّ الإسلاميّ. ولكنّه لم يتفرّد بالكتابة فيها. ولم يكن وقتها من نظام تعليميّ تونسيّ رسميّ يستقطب الآلاف ويتفرّع في كلّ جهات البلاد سوى التعليم الزيتونيّ. وقد سُبق إلى ذلك. فهذا الباي الحسينيّ أحمد بن مصطفى باي (ت1885) قد انشغل بالمسألة. ولئن لم يصنّف كتابا فيها، فإنّه دوّن بماء الذهب أوّل قانون كان قد أصدره (1842) لينظّم التعليم الزيتونيّ. وعلّقه بباب الشفاء من الجامع[1]. وأعاد الوزير المصلح خير الدين التونسيّ(ت1890) تنظيم التعليم الزيتونيّ (1876)[2]. وساهم الطاهر الحدّاد (ت1935) في الإصلاح التربويّ ب**التعليم الإسلاميّ وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة**. – في الإطار العامّ: ضمّن ابن عاشور كتابه **أليس الصبح بقريب** مشروعا في إصلاح التعليم الإسلاميّ الذي كان يومها مأزوما لا في تونس فحسب، وإنّما في العالم الإسلاميّ. وكان ذلك قبل أن يترأّس مشيخة جامع الزيتونة عام 1945 بوقت طويل. إذ يرجع البدء في تصنيفه، 1902. ولكنّه لم يطبع إلّا عام 1967. وفقدت طبعاته.

– في الأسئلة المداخل: إنّ النظر في النصّ يوجب الوعي بأسئلة من نوع: من كتب النصّ؟ هو سليل بيت من بيوتات العلم في تونس، وهو خرّيج الزيتونة، ومدرّسها، وشيخ الإسلام فيها، والعضو في لجنة إصلاح التعليم بجامع الزيتونة عام 1924 وشيخ الجامع الأعظم عام 1932 وهو،كذلك، المصنّف في علومها الشرعيّة تفسيرا ومقاصد. إنّها تجربة ثريّة، وخبرة متعدّدة الأبعاد ترشّح صاحبها للوقوف على حقائق الأحداث ومآلات الأمور. وأمّا سؤال: لِم كتب؟ فإنّ ابن عاشور يصرّح بذلك. فيقول: "... فعقدت عزمي على تحرير كتابٍ في الدعوة إلى ذلك وبَيان أسبابه". وأمّا سؤال: لمن كتب؟ فلأطراف خمسة مستخلصة من الكتاب: 1–أرباب السياسة دفعًا لهم باتّجاه التنمية. 2–وأرباب المؤسّسة إبانةً لهم عمّا فاتهم من معرفة. 3– العلماء طلبًا لمشاركته هموم الأمّة. 4– طلبة العلم معاضدةً لهم في مطالبهم. 5–لذاته إرضاءً لوعي ساكن فيه. وقد جاء في مقدّمة الكتاب: "وقد أملى عليّ ضميريّ من عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، للتفكير في طرق إصلاح تعليمنا العربيّ الإسلاميّ"[3].

[1] وإليه يرجع إنشاء المدرسة الحربيّة بباردو(1840) وإلغاء الرقّ (1846).

[2] ضمّن خطّته الإصلاحيّة في كتابه: **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**(1867). إصلاحاته: المدرسة الصادقيّة (1865). جمعيّة الأوقاف والمكتبة العبدليّة. مطبعة لتونس.

[3] ابن عاشور، محمّد الطاهر، **أليس الصبح بقريب**، ص 7.

– في قراءة النصّ: النصّ في بنيته السطحيّة بيان في إصلاح التعليم. وهو في بنيته العميقة: بيان في دور التربية في تشكيل الوعي. إنّه نصّ مخصوص يجب أن يقرأ في زمن نشأته. سعى ابن عاشور العالم الزيتونيّ إلى تشخيص حالة التعليم في العالم الإسلاميّ في محاضنه الكبرى: حوزات علم الشرع بالهند وإيران والعراق وفي الزيتونة والأزهر والقرويّين. وأبان عن دواعي التأليف: معاينة الحاجة إلى الإصلاح من خلال تجربته الذاتيّة تعلّما وتعليما، والتفكير في شأن الإصلاح. ومن هنا يكون وعيه بأزمة التعليم قد ولّد قرار التدوين. ودعّم خطابه بحثا عن مصداقيّة ما بنصوص ووثائق نادرة.

رصد ابن عاشور المعرفة في العالم الإسلاميّ منذ نشأته إلى عصر المؤلّف، من حيث تطوّرها ومناهجها ومقرراتها. لقد تأمّل التغيّرات التي شهدها العالم. فتفطّن إلى أثرها في تخلّف الشأن التعليميّ. يقول: "إذا فحصنا أسباب تأخّر التعليم وجدناها نوعين: نوعا يرجع إلى الأسباب العامّة التي قضت بتأخّر المسلمين... ونوعا يرجع إلى تغيّر نظام الحياة الاجتماعيّة في أنحاء العالم تغيّرا استدعى تبدّل الأفكار والأغراض والقيم العقليّة".وهذا التغيير قد استدعى تغيير أساليب التعليم ومقادير العلوم المطلوبة وقيمة كفاءة المتعلّمين لحاجات زمانهم"[1]. وليس التأخر في مجال التعليم بمرتبط بالمدرّس أو بمتلقّي الدرس. ولا عائد إلى موادّ التدريس والمناهج المطبّقة عليها. فالمسألة التعليميّة تشمل ذلك كلّه مجتمعا وربّما أضافت إليها الإرادة السياسيّة. وفي انتقاد المنهج التعليميّ يستشهد بقول للخضر حسين جاء في رحلته الجزائريّة: "وقد كنت –عافاكم الله– ممّن ابتلي في درسه باستجلاب المسائل المختلفة الفنون وأتوكّأ على أدنى مناسبة حتّى أفضى الأمر إلى أن لا أتجاوز في الدرس شطر بيت من ألفيّة ابن مالك. ثمّ أدركت أنّها طريقة منحرفة المزاج عن الإنتاج"[2]: أزمة التعليم، إذن، أزمة منهج. ألم يقل: "... وذلك بتغيير الأسلوب القديم"[3]. وأمّا في الإخبار عن مسؤوليّة الحكومة إزاء التعليم فيستشهد بقولة لأحد أساتذة الأروبيّين: "يجب على الحكومة أن تنظّم جيوشها للسلم كما تنظّم جيوشها للحرب. وغرض هذا تقوية البحث العلميّ"[4]: التعليم لا يستقيم، إذن، إلاّ بالقرارات.

عرض أسباب تردّي التعليم الزيتونيّ وقد جعلها خمسة عشر سببا تؤول إلى طرفي المليّة التربويّة المعلّم والمتعلّم أو موادّ التعليم في مدى مناسبتها زمنا ونوعا وكمّا أو المناهج المعتمدة في التعليم وخاصّة في مدى قدرتها على الترغيب والإفهام وبناء ملكة النقد عند المتعلّم. ومن علامات تلك الأزمة التعليميّة التي عاشتها الزيتونة في الفترة المقصودة بالبحث خلوّها ومدارسها من البنات. فالمجتمع نصفه مغيّب. ولم تكن مشاريع الإصلاح السابقة لكتاب ابن عاشور هذا لتفرد تعليم البنت بفصل أو حتّى إشارة. فقد "كانت في تونس نساء يحسنّ قليلا من القراءة والكتابة وبعض القرآن. فكنّ يجعلن في ديارهنّ بيوتا للتعليم ترد إليهنّ البنات من ديار آبائهنّ لتعليم

[1] ابن عاشور، محمّد الطاهر، **أليس الصبح بقريب**، م. س، ص 100.
[2] م. ن، ص11.
[3] م. ن، ص 101.
[4] م. ن، ص 12.

القرآن والخياطة والتطريز وغير ذلك من شؤون النساء. وتسمّى كلّ دار من هذه الدور: دار المعلّمة"[1]. والاستثناء الوحيد الذي ستشهده تونس عام 1900 المدرسة التي تحمل اسم **مدرسة البنت المسلمة**[2]. ولتلافي هذا النقص الفادح ابتدر المشروع.

* محمّد بن الحسن الحجوي وكتابه: **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلاميّ**[3]: لا يخفى على ذي اطّلاع، الدور الذي اضطلعت به النخبة المغربية العالمة في المسألة التعليميّة الموصولة بجامعة القرويّين. لقد أدلوا بدلوهم ولاسيّما خلال النصف الأوّل من القرن العشرين. وهي فترة حاسمة في تاريخ المغرب الأقصى المعاصر. لقد أدركت النخبة العالمة أنّ عمليّة الإصلاح معقودة بإصلاح التعليم. ومن هؤلاء الذين قدّموا مقاربة إصلاحيّة العالم القرويّينيّ متعلّما ومعلّما مُحَمَّد بن الحسن الحجويّ (ت1956).

ننظر في مزايا هذا العلم للتعرّف على الفكر الذي يخترق كتاباته خيطا ناظما لآرائه ومواقفه وتجاربه. فمن تلك المزايا أنّه تخرّج من القرويّين ودرّس بها، وأنّه متضلّع في الفقه وصاحب اجتهادات فيه ضمّنها كتابه الذي قرّضه أشهر أعلام عصره: **الفكر السامي في الفقه الإسلاميّ**، وبه ذاع صيته في شرق العالم الإسلاميّ وغربه، وأنّه شغل وظائف حكوميّة سامية[4]، وأنّه كان ذا صلات بالأوروبيّين مكّنته من معاينة الرقيّ عندهم، عن كثب. فضائل عديدة كانت لهذا المفكّر أهّلته ليكون ممثّلا لما أنتجته القرويّين بفضل العلوم التي تلقّاها طلبتها، ومكّنته من تبيّن أسباب الفوضى وانخرام النظام الذي كان يرين على البلاد ويسّر للمحتلّ سبل الدخول فالسيطرة.

– في الإطار العامّ: جعل الحجويّ للقرويّين فصلا وسمه بإصلاح القرويّين. ولا يحتاج العنوان إلى تفسير أو تعليل ليكشف الخطّة التي ارتآها الحجويّ ناجعة. العمليّة التربويّة، عنده، هي مركز الإصلاح ومحوره. ولما كانت القرويّين تحظى بتلك المنزلة التي أخبر عنها في مستهلّ الفصل، كان لا بدّ للإصلاح التعليميّ أن يمرّ عبرها. تعدّ القرويّين، والعبارة للحجويّ: "المعهد الأعظم في إفريقيا الشماليّة للعلوم العربيّة والدينيّة والآداب الإسلاميّة لاسيّما بعد سقوط الأندلس"[5]. نتجاوز، هنا، التقييم الانطباعيّ الانفعاليّ في عدم تنسيبه لقيمة هذه المعلمة أو حتّى ذكر مؤسّسات أخرى مثلها في نشر العلم وسابقة لها في ميدان المعرفة وحتّى تاريخ التأسيس. يردّ الحجويّ رفعة القرويّين في ما أنتجته من علماء أطلق عليهم "الرعيل الأوّل" تأسّيا، ربّما بأعلام عقود الإسلام الأولى. ثمّ قال، "وقد بلغ صيت الرعيل الأكبر من المؤلّفين المتخرّجين منه أقصا المشارق والمغارب"[6].

---

[1] م. ن، ص 88.

[2] هناك إشارة إلى هذه المدرسة مع فارق الاسم "مدرسة البنات بتونس سنة 1320". انظر: ابن عاشور، **أليس الصبح**، م. س، ص 88.

[3] الحجوي، محمّد بن الحسن، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلاميّ**، مطبعة دار المعارف بالرباط، 1340، هـ(1921) ثمّ مطبعة بلديّة فاس 1345هـ(1926)، ج 4، صص30-31.

[4] أهمّها: عضو المجلس الأعلى للتعليم. –مندوب المعارف 1912 . 1914 ثم 1921 . 1939 . –وزير المعارف.

[5] الحجوي، محمّد بن الحسن، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلاميّ**، م. س، ص30.

[6] م. ن، صص30-31.

– في تجميع المداخل: أن تكون القرويّين ذات دور في نشر المعرفة شرقا وغربا، وأن تكون ذات تفوّق علميّ وأدبيّ، وجب إدراك ما فيها من خلل واختبار خطط تعليميّة حديثة تمكّنها من مواكبة العصر. هذا العصر الذي أخذت تتسارع خطواته فأخذ يبتعد عن الراكدين شيئا فشيئا.. يقول الحجويّ واصفا القرويّين مؤكّدا التناقض بين منزلتها وما هي عليه من جمود: "إنّ القرويّين مازال على حاله القديم. فمع كونه مسجدا دينيّا مقدّسا هو محلّ تطوّع مفتّح الأبواب لإلقاء الدروس الدينيّة والعربيّة ولتلقينها من غير أن يكون به نظام ولا ترتيب لسير دروسه ولا للموظّفين الدينيّين المتخرّجين منه ولم تزل رواتب المدرّسين به تافهة على ما وقع في السكّة النقديّة من انحطاط حتّى صارت لا تسدّ خلّة المدرّسين. ولا تسل عن المتعلّمين. فصار جلّ المدرّسين يتعاطى حرفة يسدّ بها رمقه. فتعطّلت دروس وأهملت فنون كانت فيه زاهرة يانعة من قبل"[1]. لقد حدث تراجع في عطاء القرويّين. ووقع تغيّر فعليّ في موادّ التدريس. غابت الموادّ المتّصلة بعلوم الحياة والأرض، مثلا. ومن هنا أدرك الحجوي، وهو سليل عائلة ذات باع في التجارة، أنّ الوضع المادّي لأطراف العمليّة التعليميّة بات يشكّل حاجزا دون الرقيّ المعرفيّ. فالعالم إن لم تُكفل كرامته بسدّ حاجيّاته انشغل بكسب الرزق وتخلّى عن طلب العلم وبثّه. وكذا شأن الطالب الذي لا يجد ما يكفل له الحدّ الأدنى من العيش الكريم. نوّع الحجويّ مداخله في طرح مسألة الإصلاح. فأشّر على قيمة القرويّين ثمّ اتّخذ من وظيفته متّكأ. واستند إلى أحد المستعربين حتّى لا تعطّل سلطات الحماية المشروع. وليست القرويّين عندها سوى "بيت مظلم" حسب عبارة هوبر ليوطي[2] (Hubert Lyautey) (1854–1934).

– في قراءة النصّ:

أبان الحجويّ ضرورة المناسبة بين الوظيفة والفكر الذي يحمله صاحبه. إذ لا تموت الفكرة بمجرّد الانخراط في سلك الوظيف. وهذا ما أخبر به صاحب **الفكر السامي** حين تولّى خطّة نائب الصدارة العظمى في المعارف والتعليم: "فكان أمر القرويّين أوّل ما أهمّني قلبا وقالبا لأنّها أمّي... وبها أميطت عنّي التمائم"[3].

كان المدخل الأوّل للمقاربة الإصلاحيّة توظيف الوظيف. فبمجرّد تسلّمه لخطّة النيابة في وزارة المعارف والتعليم هبّ لتفعيل مشروعه. وذلك بتحويل أفكاره الإصلاحيّة أفعالا ظاهرة بيّنة يشرق بها العلم في القرويّين وتشرق به هي على المغرب داخلا وخارجا. وكان المدخل الثاني الاستعانة برمز من رموز الاستعراب الفرنسيّ يومها: مرصي. يقول: "وأسند نظرها إليّ فقدمت فاسا صحبة أحد أعضاء الكتابة العامّة للدولة الحامية. وهو المستعرب الشهير الذائع الصيت لدى العلماء والعوامّ موسيو مرصي"[4]. وقد ينتقد البعض هذا اللجوء إلى ممثّلي الاستعمار. الاستعمار. ولكنّ قراءة الحدث في زمنه والإحاطة بحيثيّاته تقتضي عدم التسرّع في اتّخاذ المواقف الانتقاديّة جزافا. وأمّا المدخل الثالث فكان استشارة الحجويّ لعلماء المؤسّسة واعتبارة منزلتهم واحترام كلمتهم. وذلك بتقديم

[1] م. ن، ص31.
[2] أوّل مقيم عامّ لفرنسا بالمغرب (1912–1925).
[3] الحجوي، محمّد بن الحسن، **الفكر السامي**، م. س، ص31.
[4] الحجوي، محمّد بن الحسن، **الفكر السامي**، ص31.

مشروع الإصلاح على أساس الاقتراح وتحسيسهم بصبغة الاستعجال فيه. يقول: "ورغّبتهم في تشكيل لجنة لتحسين حال القرويّين... ونجعل قانونا أساسيّا للقرويّين يكفل حياتها ورقيّها... مجلس العلماء التحسينيّ"[1].

إنّ النظر في لبّ المقترح لا يكون بغير البحث في موادّه. وقد فصّل الحجويّ القول فيها. ونجمله، هنا، كما يلي: عدد الموادّ الإجماليّ مائة مادّة ومادّتان مقسّمة على عشرة أقسام: القسم (1) في نظام المجلس الأساسيّ،(2) في ضبط نظام العالمية،(3) في تحديد كيفية امتحان المدرسين (4) في إحداث وظيفة شيخ القرويين، وناظرين معه، وتحديد نظرهم (5) في تنظيم طبقاته، وشروط قبول المتعلمين، (6) في العطلة السنوية (7) في المجازاة على تأليف الكتب (8) في نظام التقاعد، (9) في الأمور التأديبية، (10) في عرض هذا القانون على الجلالة اليوسفية لتصادق عليه أوتنقحه. نسجّل تفاوتا بين الأقسام من حيث عدد الموادّ. وذلك راجع إلى طبيعة ذلك القسم إن كن نظريّا أم إجرائيّا. وقد حاصر الحجويّ مشروعه الإصلاحيّ ببُنْدين قانونيّين طلبا لسلامة المقترح واستمراريّته في حال تنفيذه. البند الأوّل يتمثّل في ضبط قانون أساسيّ تسير وِفْقه عمليّة الإصلاح. والثاني يكفل الصبغة التشريعيّة. إذ الكلمة النهائيّة كانت لأولي الأمر من أهل السياسة: "الجلالة اليوسفيّة" والعبارة للحجويّ.

الناظر في بقيّة الأقسام التي مثّلت جوهر المقترح، يمكن الوقوف على نظام تعليميّ إصلاحيّ شديد الدقّة. فلم يكن الحجويّ ليغفل عن مستحقّات أطراف العمليّة التربويّة معلّما ومتعلّما، فضاء وموادّ تدريس ومناهج إجرائيّة لتطبيقها وشروط القبول العلميّة والخلقيّة، وكذلك مسائل التأديب والجزاء. وفي مسألة الجزاء هذه برهن الحجويّ على رؤيته الإصلاحيّة الاستشرافيّة. لقد تعلّق الجزاء بإنتاج المعرفة لا سيّما في ميدان التأليف الذي يعدّ أحد مقاييس التقدّم العلميّ.

وقد ردّ ياسين زينون في بحث قيّم له[2] محاولة الإصلاح الحجويّة إلى النظام التعليميّ المهترئ بالقرويّين. وأنمى عمليّة الإصلاح تلك إلى المرجعيّة الفرنسيّة[3]. ولا نرى إطلاق القول في ذلك. فمقوّمات مقترح الحجويّ تنهل من سنن التقدّم الكونيّة الماثلة أمامه يومها في نماذج أوروبيّة متعدّدة. وكان الحجويّ قد قصد بريطانيا في غرض تجاريّ فإذا به ينجذب إلى معالم الحضارة هناك. ثمّ إنّ النظر في ما تقدّم دلّ على أنّ تدريس العلوم

[1] الحجوي، محمّد بن الحسن، **الفكر السامي** 4، ص31.

[2] زينون، ياسين، إصلاح التعليم المغربي من منظور محمّد بن الحسن الحجوي، مؤمنون بلا حدود، الفلسفة والعلوم الإنسانية. 01 فبراير 2018. http://www.mominoun.com/articles/5624

[3] انظر عنصر: **1– تعليم إلزاميّ وعموميّ أسوة بالدولة الحامية**. من البحث السابق الذكر.

يتطلّب في موادّه الشمول والدقّة والاختصاص وفي مناهجه التجريب والتجريد. وهذان مقوّمان صميمان في الحركة العلميّة التي شهدها تاريخ العلوم في تراثنا[1]

ب–التأثّر

* **أزمة المؤسّسة**: إنّ الحديث عن الأزمة في المؤسّسة الدينيّة لا يخرج عن مدار الحديث عن المؤسّسة عامّة، ولا تمثّل فيه الزيتونة والقرويّين، في ذلك، استثناء. وقد أشارت المصنّفات[2] في الشأن التعليميّ لها، وقبل المضيّ قدما في محاولة رصد وجوه الأزمة، نشير إلى مسألة جوهريّة تتعلّق بمدى الاقتدار العقليّ على الفصل بين الحقيقة والوهم. لقد ارتبط الحديث عن الزيتونة، وتحديدا اختيار موضع البناء، بأسطورة النور المنبعث من موضع الصومعة. وقد أرشدهم إليه راهب مسيحيّ. وقد ذكر ابن الخوجة قصص بعض الصالحين والدراويش الذين كانوا في صلة بجامع الزيتونة. وكان الناس، يؤمنون بهم وبكراماتهم. ففي قصّة أحد الأولياء يقول ابن الخوجة: "قالوا إنّه رمى بقربته بصحن الجامع فبقي أثرها بشكلها أزرق حتّى اليوم..."[3]. وهنا نقف على هول الهوّة بين ما أنيط بعهدة هذا المعلم العلميّ من وظائف تنويريّة وبين التردّي في بؤر الانحراف العقليّ والعقديّ. وللقرويّين عقد ابن أبي زرع فصلا: الخبر عن جامع القرويّين وصفته وما زيد فيه في كلّ زمان من حين أُسّس إلى وقتنا هذا"[4]. وارتبط حديثه عن القرويّين بسرد قصص غريبة وعجيبة، منها ما عرف بأسطورة الطلاسم: الفأر والعقرب والحيّة، ثلاثتها لا تدخل جامع القرويّين. "ولم يوجد قطّ على قديم الزمان وحديثه من لسعته فيه حيّة ولا عقرب"[5]. وكذلك أسطورة الصهريج والسلحفاة"[6]. وليست هذه الأساطير بموضع اهتمامنا، وإنّما الذي ينبغي أن يكون مناط الاهتمام هو البعد الخرافيّ المكتنف لمحاضن العلم والمعرفة. وبهذا يكون ولع العامّة والعلماء بهاتين المؤسّستين غير مانع لهم من الوقوف، في تمجيدها، على تخوم الأسطوريّ. بل قد يكون دافعا مغذّيا لذلك التوجّه.

–موادّ التدريس في الزيتونة: أشار ابن عاشور إلى أنّها لم تكد تتغيّر فهي ذاتها والمقرّرات كذلك ذاتها، منذ عصر ابن عرفة. يقول: "كان يدرّس بتونس في زمن الشيخ محمّد بن عرفة. ففي الفقه رسالة الشيخ أبي زيد القيروانيّ، مختصر بن الجلاّب، التهذيب، النوادر، الذخيرة،... مختصر ابن حاجب، مختصر ابن عرفة. وفي النحو تسهيل ابن مالك، وكتاب سيبويه، وفي الأصول...وفي الكلام...وفي المنطق جمل الخونجي، وفي اللغة والأدب مقامات

[1] وأهمّيّة هذا المقال في اعتماد المخطوطات بالخزانة الوطنيّة تحت الأعداد التالية: ح 115-118-127-199-227. مخطوطات الحجوي: **إصلاح التعليم العربيّ– الرحلة الأوربيّة، –أساس التهذيب الإسلامي أو أصول التربية الإسلامية للمدارس الابتدائية، –المعارف في المغرب وجهود الحكومة– تفقد مدارس فاس دجنبر1925**.

[2] يمكننا القول، هنا، إنّ كتابات المغاربة حول أزمة المؤسّسة الدينيّة: الزيتونة والقرويّين، لم تبلغ مبلغ كتابات الأزهريّين في انتهاج الانتقاد بدل النقد في المسائل تتعلّق بالأزهر. كتب محمّد سليم العوّا، مثلا، **أزمة المؤسّسة الدينيّة**.

[3] ابن الخوجة، محمّد، **تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد**، م. س، ص 78.

[4] ابن أبي زرع، علي الفاسي،**الأنيس المطرب**، م. س، ص54.

[5] م. ن، ص 58.

[6] المرجع نفسه، ص 60.

الحريريّ، وفي التفسير...وفي الحديث... وفي الفرائض مختصر الحوفي، وفي القراءات..."[1]. نلاحظ أنّ الموادّ التي تؤثّث الدرس جمعت بين علوم الشرع واللغة والآداب والمنطق والحساب الذي يقتضيه علم الفرائض. وحتّى حين أخذت بوادر التحديث تتسرّب إلى نظام التعليم في الجامع الأعظم من خلال تأسيس الخلدونيّة لم يحرص المسؤولون يومها على إجباريّة الحضور. بل جعلوا أسلوب المحاضرة طريقة لبثّ العلم في الطلبة. وأنّى لهم بالاستفسار والتجريب. تلقى الدروس في الجمعيّة الخلدونيّة، إذن،: "محاضرات باللغة العربيّة في علوم الحساب والمساحة والجغرافية والتاريخ وفي اللغة الفرنسيّة ويتبع ذلك حفظ الصحّة ومبادئ الطبيعيّات والكيمياء التي لا تزاول اليوم بالجامع الأعظم يحضرها من يختار الحضور فيها من الطلبة وغيرهم"[2]. وهذا يبشّر بأزمة في المنهج ستلفت انتباه وزير المعارف مشويل الذي وجّه انتقاده، في مناسبات كثيرة، للتعليم الزيتونيّ: "قلت إنّ التعليم في الجامع الأعظم كان شفويّا فقط. وينتج عن ذلك أنّ الطلبة لم يتدرّبوا، أبدا، على التحرير في لغتهم"[3].

– **موادّ التدريس في القرويّين:** حين نبحث عن موادّ التدريس في القرويّين نعثر عند التازي على عنوان طريف: "المدينة ذات الأربعين والمائة كرسيّ" يقول فيه: "ولئن كانت هناك أمّة استطاعت أن تحتفظ بتراث المشرق، كما يجب الاحتفاظ، فهي دولة المغرب، وعلى الخصوص بلاد المغرب الأقصى"[4]. ولئن كان مقياس تميّز المغرب موصول بحفظ التراث فإنّ القرويّين هي المؤسّسة التي حفظته. لكنّ الكتّانيّ ينظر إلى جامعة القرويّين في بيئتها العلميّة الكبرى. فيراها منسجمة في عِقْد مؤسّسات العلم الإسلاميّ. فقال: "وجامعة القرويّين بعلومها الإسلاميّة الدينيّة والدنيويّة معا، ليست بدعا بين الجامعات الإسلاميّة الأخرى، كالزيتونة، والأزهر، والنجف ... ونظيراتها في باكستان والهند، وبقية العالم الإسلامي"[5]. ورصد العلوم التي كانت تدرّس فيها خلال القرن الثامن الهجريّ، تحديدا: "...وفنون العلم المدروسة فيه، فكانت: التفسير والحديث، والأصول والفقه، والنحو والبيان، والمعاني والبديع، والمنطق والعروض، والحساب والتنجيم، والكلام والتصوف، واللغة والتصريف، والتوحيد والتاريخ، والجغرافيا و الطب، والقضاء والأحكام والأدب"[6]. وفي موضع آخر ذكر عوما أخرى نظيفها إلى ما تقدّم: "قرآن... وتصوّف، وسيرة، وهندسة وفلسفة، وفنون، وما يمتّ إلى هذه العلوم بسبب"[7]. ثمّ عدّد الكراسي العلميّة بحسب موادّ التدريس. ولكن ما كرسيّ العلم؟ يعرّفه التازي بقوله: "كانت المجالس العلميّة تعني وجود كرسيّ يصعد عليه الأستاذ ليتمكّن من تبليغ درسه"[8]. "لكلّ علم كرسيّ خاصّ به، منذ قرون، ولكلّ علم حلقة تحيط بكرسيّه وبالمدرّس عليه، كرسيّ للتفسير، وكرسيّ للحديث، وكرسيّ للفقه... وكرسيّ سيبويه

[1] ابن عاشور، محمّد الطاهر، **أليس الصبح بقريب**، م. س، ص 72.

[2] المرجع نفسه، ص 89.

[3] Machuel, ***L'enseignement musulman***, op.cit, p. 383

[4] التازي، عبد الهادي، **جامع القرويّين**، ج 2، ص 370.

[5] الكتّانيّ، محمّد المنتصر، **فاس عاصمة الأدارسة ورسائل أخرى**، م. س، ص 87.

[6] م. ن، ص 64.

[7] م. ن، ص 86.

[8] التازي، عبد الهادي، **جامع القرويّين**، ج 2، ص 370.

بالقرويّين..."[1]. لهذه الكراسي العلميّة مواضع معيّنة وأسماء مخصوصة: كرسيّ المحراب وكرسيّ الإمام الورياكلي (ت880هـ) وكرسيّ النحو وكرسيّ باب الشمّاعين[2]. تبدو مسألة الكراسي العلميّة ذات شأن بالمعيار التعليميّ التربويّ. وربّما كانت، كذلك، لاعتبارها ولاية حكوميّة لها شروطها وانتظاراتها. يقول التازي: "لقد كانت ولاية الكرسيّ بالقيرويّين أمرا ذا بال وبالغ الأهمّيّة لأنّه كان بمثابة ولاية حكوميّة لا تقلّ عن منصب القضاء والفتيا والوزارة "[3].

– **انقسام أرباب المؤسّسة:** * انقسم القائمون على مؤسّسة الزيتونة حين عقدت لجان الإصلاح. والأمثلة على ذلك كثيرة. ولكن نقتبس منها ما كان غريبا عجيبا. نأخذ موقفين كانا تجاه مشروع الإصلاح الذي تقدّم به محمّد الطاهر ابن عاشور. الموقف الأوّل يخصّ الشيخ محمّد بيرم الذي إذا طلب رأيه "يرفع سبّابته مشيرا بالنفي ولا يتكلّم"[4]. يصل رفض المقترح حدّ الاستهانة به. فلا يردّ عليه بلفظ واحد. إنّه رفض قطعيّ قد يرقى إلى التحقير والاستهجان. وأمّا الشيخ الطاهر جعفر فقد التزم الصمت هو الآخر واستعاض عن رفع السبّابة بالكتابة. كتب تحت المطالب، وعددها اثنا عشر مطلبا: "تأمّلت في المرقوم أعلاه. وعلمت منطوقه وفحواه. ثمّ عرضته على قواعد الدين. فرأيت أنّ قواعد الدين تأباه"[5]. واضح أنّه انشغل بالمحسّنات البلاغيّة. فسجّع ما كتب. ورفض المقترح رفض شرع ويقين. ولكن دون تعليل. ولا يعادي ابن عاشور النماذج الحضاريّة المتقدّمة. وإنّما يقف إزاءها وقفة متعقّلة افتقد إلى الكثير من أعلام الزيتونة في عصره. وهذا بعض ما جاء على لسانه في هذا الشأن: "وبالجملة لسنا ننكر حسن العلوم التي عليها الأمم المتمدّنة... بل نعترف بأنّ تقدّم الأمم ليس إلاّ بالترقّي في درجات المعارف والفنون"[6].

* انقسم علماء القرويّين، هم أيضا، في شأن الإصلاح التعليميّ. ووقفوا ضدّ أيّ عمليّة تجديد مقترحة. وكان هذا من أهمّ أسباب ظهور الأزمة التعليميّة في المؤسّسة. ولقد تجلّى هذا الانقسام خاصّة في تعدّد المواقف إزاء مشروع الحجويّ الإصلاحيّ، مثلما تقدّم. وكان الانقسام بين أعلام القرويّين قد بلغ حدّ التشهير والتجريح. ومحمّد الحجويّ نفسه قد تعرّض إلى مواقف انتقاد حادّة أسقطت مشروعه بل تسبّبت في عزله من منصبه[7].

[1] الكتّانيّ، محمّد المنتصر، **فاس عاصمة الأدارسة ورسائل أخرى**، م. س، ص 64.
[2] التازي، عبد الهادي، **جامع القرويّين**، ج 2، ص 375.
[3] م. ن، ص 371.
[4] ابن عاشور، محمّد الطاهر، **أليس الصبح بقريب**، م. س، ص 126.
[5] ابن عاشور، محمّد الطاهر، **أليس الصبح بقريب**، م. س، ص 126.
[6] م. ن، ص 129.
[7] انظر: زينون، ياسين، إصلاح التعليم المغربي من منظور محمّد بن الحسن الحجوي، م. س.

وستشهد ساحة القرويّين انقساما داخليّا في مسائل أحرى كتلك التي تتعلّق بالطرقيّة والسلفيّة. وهي في حقيقة الأمر لا تنفصل عن القضيّة الأمّ أي القضيّة التعليميّة باعتبارها المسؤولة عن بناء العقل وتوجيهه[1].

- **–دور أرباب السياسة:** لم تكن الزيتونة ونظيرتها القرويّين بمنأى عن التنفّذ السياسيّ مثلما لم تكونا بعيدة عن المواقف المتشدّدة لما كان يطلق عليهم بالشقّ المحافظ المقدّس للقديم والمتوجّس خيفة من الجديد. وهذا الحال الموتور بين طرفين سلطويّين: سلطة القرار الواحد وسلطة العلم المطلق أفرز وضعا مأزوما لم يكن للمجدّدين في الشأن التعليميّ من أمثال محمّد الطاهر ابن عاشور ومحمّد بن الحسن الحجويّ، القدرة على التحرّك فيه. فكيف بإجراء خططهم وتفعيلها على أرض الواقع. وفي هذا يقول رضوان السيّد: "وهكذا وقعت المؤسّسات الدينيّة في أكثر الدول بين راديكاليّتين: راديكاليّة حركات الهويّة والطهوريّة، وراديكاليّة الأنظمة الثوريّة التي تريد إزاحة الدين من المجال العامّ"[2]. ولذلك يشدّد على حتميّة التخلّص من هذين الطرفين اللذين يحولان دون تحليقها في سماء العلم ومن ثمّ دون حيازة موقع قدم في عصر العلم. يقول: "تحرير المؤسّسة الدينيّة من "الأصولية والطغيان"[3]. وفي السياق ذاته يقول العوّا كاشفا عن مخاطر التصوّر الوظيفيّ للمشيخة: "فالأزهر ليس جهة من الجهات الإداريّة التابعة للحكومة"[4]. ومثله يؤكّد الجابريّ شدّة ارتباط المؤسّسة التعليميّة بجهاز الدولة. فيقول: "لم يكن هناك في التاريخ الإسلاميّ، في أيّ فترة من فتراته، مؤسّسة خاصّة بالدين متميّزة من الدولة"[5]. غير أنّه يقول في موضع آخر في ما يشبه التناقض: "كان "السلفيّ" في الوسط الثقافيّ والاجتماعيّ الذي كنّا نعيش فيه... رجلا مجدّدا مناهضا للوضع القائم"[6]. وقد نجد لقوله ذلك تفسيرا ما يقنع إلى حدّ ما في محاولته تبسيط القول في ثنائيّة: يمين/يسار. يقول، تحت عنوان: التطرّف يمينا ويسارا: "فالتيّار الإسلاميّ... يمتدّ من وسط اليسار إلى أقصى اليمين... تماما مثلما أنّ التيّار التحديثيّ في الساحة الفكريّة العربيّة يمتدّ من وسط اليمين إلى أقصى اليسار..."[7]. فالمشروع الإصلاحيّ في مجال التعليم قد ينحو باتّجاه مخافل لمبادئه وأهدافه فيقع على تخوم الضفّة المقابلة له. وهذا الأمر لا يزيد المشاريع الإصلاحيّة إلاّ تأزّما ولا سيّما متى كان القائمون على ذلك الإصلاح غير واعين باتّجاه تحرّكهم واتّجاه حركة التاريخ. بقول رضوان السيّد مشيرا إلى هذه المعظلة ولكن بعبارة

[1] مثاله: المعركة التي دارت بين الشيخين الكتّانيّ والوزّانيّ والتي كشفها كتاب **البحر المتلاطم الأمواج المذهب لما في سنّة القبض من العناد واللجاج**، انظر: قرفال، نجاة، **العلاقات العلميّة بين الزيتونة والقرويّين**، م. س، ص 74.

[2] رضوان السيّد، **المؤسسات الدينية وسياسات الدين والدولة**، الشرق الأوسط، عدد: 13191، 09 يناير 2015.
https://aawsat.com/home/article/261811/

[3] رضوان السيّد، **المؤسسات الدينية وسياسات الدين والدولة**. م. س.

[4] محمّد سليم العوّا، أزمة المؤسّسة الدينيّة، ط1، القاهرة–مصر، دار الشروق، 1998، ص14.

[5] الجابري، محمّد عابد، **الدين والدولة وتطبيق الشريعة**، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1996، ص 62.

[6] م. ن، ص 136.

[7] م. ن، ص 145.

أخرى: "وزاد الطين بلة أن الأنظمة الثوريّة التي استولت على الدولة الوطنيّة في أكثر ديار العرب والمسلمين، اعتبرت أنّ المؤسّسات الدينيّة تشكّل عقبة أمام برامج التحديث والعصريّة"[1].

* **معركة الصحافة**: تأثّر الزيتونيّون بالفكر الإصلاحيّ المشرقيّ، ولا سيّما بثلاثة أعلام مشارقة: جمال الدين الأفغاني (ت1897م) الذي سيصدر جريدة **العروة الوثقى** في باريس (1884) بمعيّة تلميذه محمّد عبده (ت) الذي سيزور تونس مرّتين والذي سيتكفّل تلميذه مُحَمَّد رشيد رضا (ت 1935م) بنشر فكره في مجلّته المنار[2]. ليست هذه وجهتنا في الاستدلال على المعركة الصحفيّة التي شهدتها الزيتونة وهي تخوض تجربة الإصلاح التعليميّ. ولكن نيمّم القصد تجاه نقطة التقاطع بين الصحافتين: التونسيّة والفرنسيّة. وبذرة الحدث كانت محاضرة ألقاها المستعرب بول لابي(Lapie, Paul) (1869-1927)، وكان أستاذ الفلسفة بمعهد كارنو يومها، في معهد قرطاج حول تدريس المنطق بجامع الزيتونة. فأحدثت "ضجّة" بعبارة العربي الذي يقول: "وكان سبب هذه الضجّة محاضرة ألقاها الأستاذ لابي... وكان عنوانها **تعليم المنطق بجامع الزيتونة**"[3]. احتدم الجدل بين زمرة من الوسائط الإعلاميّة باللسانين العربيّ والفرنسيّ. وقد تمثّل الشقّ العربيّ في جريدتي الحاضرة[4] والزهرة[5] والزهرة[5] مع فارق في الموقف. وتمثّل الشقّ الفرنسيّ في المجلّة التونسيّة، لسان حال معهد قرطاج، ولادبش تونزيان (*La Dépêche Tunisienne*). ومن الطريف أنّ جريدة الزهرة والمجلّة التونسيّة وقفتا في صفّ واحد دفاعا عن محاضرة لابي، بينما وقفت لادبش تونزيان والحاضرة في الصفّ المقابل. وهذه سيرورة الحدث الإعلاميّ:

ألقى لابي المحاضرة بمعهد قرطاج في 8 فيفري 1895. فعلّقت **لادبش تونزيان** بمقال"حول ظلمه للمناطقة؟" في 14 فيفري. ونشرت الترجمة في **الحاضرة** 26 فيفري. ونشرت **الحاضرة** مقالا "التحقيق في تعليم المنطق بجامع الزيتونة بإمضاء أحد خدمة العلم الشريف" في العدد 339، 2 مارس، (بفارق زمنيّ يقدّر بأسبوعين). ثمّ نشرت جريدة **الزهرة** مقالا عنوانه: "المسألة المنطقيّة" في 31 مارس. ثمّ نشرت المحاضرة[6] في **المجلّة التونسيّة** وتعليق صفر عليها في أفريل. ولم يسلّم لابي بل نشر مقالا في **المجلّة التونسيّة** جويلية: "حقيقة تعليم المنطق بالجامع الأعظم. أثار المستعرب لابي السواكن. وحرّك المسلّمات بمقاربته التعليم الزيتونيّ. فبرهن على خطر المسّ بهذه المؤسّسة العلميّة التونسيّة العريقة[7]. بل لعلّه دفع إلى وجوب إعمال العقل في أحوال التعليم

[1] رضوان السيّد، **المؤسسات الدينية وسياسات الدين والدولة**، م. س.

[2] عن صدى معركة الصحافة انظر: ابن منصور، الصحبي، **الزيتونة: التاريخ وهامشه: قراءة تفكيكيّة في الظاهرة الزيتونيّة من النشأة إلى الإصلاح**. مركز الدراسات الإسلاميّة بالقيروان/ مجمع الأطرش للكتاب المختصّ، تونس 2016. (القسم الثاني)

[3] علي، العربي، **الحاضرة**، كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، تونس، السلسلة 8، المجلّد 2، 1995، ص 232.

[4] بول، لابي، **تعليم المنطق بالجامع الأعظم**، (ترجمة البشير صفر)، جريدة الحاضرة عدد 337، 26 فيفري 1895.

[5] كاتب مجهول، **المسألة المنطقيّة**، جريدة الزهرة عدد 215، 31 مارس 1895. (وقد ساند موقف البشير صفر في موقفه في هذه القضيّة).

[6] Lapie, Paul, ***L'enseignement de la logique à l'université musulmane de Tunis***, *Revue Tunisienne*, A 2, N°6, 1895, p. 124-131.

[7] وسيستثمر مشويل هذه التداعيات. وسينبّه إلى خطر المساس بالتعليم الزيتونيّ وضرورة إيجاد سبل أخرى لتفعيل الإصلاح فيه.

الزيتونيّ. وهذا احتمال قويّ لأنّ بدايات القرن العشرين ستشهد تحرّكا فكريّا حثيثا داخل الزيتونة وخارجها. وأمّا بالنسبة إلى المعارك الصحفيّة بشأن الإصلاح التعليميّ في القرويّين فيبدو أنّه لم يكن على درجة الاحتدام التي شهدها في تونس. بل إنّه بدا من خلال جملة من الكتابات الصحفيّة[1] هادئا متسامحا. ومن هنا لا يمكننا إطلاق مفهوم المعركة الحفيّة عليه.

ثالثا: المؤسّسة في العالم: الإشعاع والاستقطاب:

بين الإشعاع والاستقطاب تفاعل يلغي أسبقيّة الواحد على الآخر. إذ بفضل الإشعاع خارج حدود البلاد يتمّ الاستقطاب. والاستقطاب في حدّ ذاته يمنح المؤسّسة إشعاعها المعرفيّ. ولا نغفل عن آليّاتهما المتعدّدة. ومنها: الإجازات والمراسلات والتقاريظ والرحلات والندوات والمؤتمرات والتصنيف.

أ– الإشعاع: إنّ الأدبيّات الفرنسيّة المتعلّقة بالمؤسّسات الدينيّة العريقة ذات وفرة. وإنّها بوفرتها تلك تشكّل حلقة أخرى منسيّة في مجال الاهتمام بهذا الضرب من مؤسّسات التعليم في المغرب الإسلاميّ. نرصد في محاولة البحث هذه إشعاع مؤسّستين علميّتين ارتبط بهما بلدان مغربيّان: زيتونة تونس وقرويّين المغرب. وإنّ في توسّل الصحبي بن منصور "الظاهرة الزيتونيّة"[2] اختيارا يؤكّد مسألة الإشعاع هذه. فقد كان لهذه الطاهرة أثر في كتابات المستعربين الذين حقّقوا، لا شكّ، حضورا فاعلا في عصرهم بالكتابة عن المؤسّسة الدينيّة الإسلاميّة. وفي ذلك صنّفت الكتب وحبّرت المقالات وعقدت المؤتمرات.

* **إشعاع الزيتونة:** المسألة التعليميّة الزيتونيّة في المؤتمرات الاستشراقيّة الدوليّة: حاضر لوي مشويل (Machuel, Louis) (1848–1921) في مؤتمر المستشرقين تحت عنوان **التعليم الإسلاميّ في تونس ممثّلا** لتونس. جاء في المجلّة التونسيّة: "قرئ هذا البحث، في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد بباريس... من طرف السيّد مشويل مدير التعليم العموميّ بتونس وممثّل الحكومة التونسيّة في هذا المؤتمر"[3].

لا تعنينا، هنا، مقاصده بقدرما يهمّنا اختراق التعليم الزيتونيّ تلك المنابر. وذلك نوع من الإشعاع المعرفيّ. يتأكّد هذا حين نقتبس بعضا ممّا قال فنقف على بعض من أفكاره ومواقفه تجاه هذا النوع من التعليم. يعلم الحضور جيّدا مشويل من يكون؟ لا بوظيفته مديرا للتعليم العموميّ بتونس فحسب. ولكن كذلك، وهذا أهمّ، بتصانيفه في مجال التعليم بل تعليم اللغات بصفة خاصّة بل تعليم اللغة العربيّة بصفة أخصّ، الفصحى منها والعامّيّة أيضا. يحيل مشويل بعد التحيّة إلى منزلة الأدب في تونس: "... كانت الآداب العربيّة، دوما، مشرّفة في تونس"[4]. ثمّ يعدّد فضائل التعليم الجامعيّ في تونس بذكر المدن العلميّة. فيقول: "نشرت جامعات تونس

[1] وقد يكون البحث قد قصر عن إيجاد مادّة صحفيّة مغربيّة توفّر شواهد على المعركة الصحفيّة في المغرب بشأن القرويّين. ولكنّ مجلّة **دعوة الحقّ** نشرت مقالات في الغرض. هذا أحدها: –ميّ، نعيمة، معالم ومظاهر التاريخ الفكريّ والثقافيّ للقرويّين، دعوة الحقّ (1422/ 2002) مج 43، عدد 364.

[2] وهي تسمية متواترة في كتاب الصحبي بن منصور، الزيتونة: **التاريخ وهامشه**، م. س.

[3] Machuel, Louis, ***L'enseignement musulman* en Tunisie**, *Revue Tunisienne*, T IV, 1897, p. 338, (note1).

[4] Machuel, ***L'enseignement musulman***, op.cit, p. 383.

والقيروان، قديما، أكبر إشعاع والعلماء الذين تخرّجوا منها كثيرون..."[1]. ثمّ يؤشّر على منزلة التعليم الزيتونيّ الباقية معتبرا شيوخه أساتذة له بل لكلّ من ينضوي تحت ضمير "نحن".: "ورغم أنّ التعليم الإسلاميّ في تونس لم تعد له شهرته التي كانت له فإنّه مازال بالغ القيمة في العالم الإسلاميّ وكثير من الشباب يأتون من طرابلس والجزائر وحتّى المغرب، لمتابعة دروس أساتذتنا في جامع الزيتونة"[2]. ومن هنا جاءت دعوته إلى "تجنّب إهانتهم في مشاعر الاحترام والإكبار التي لهم تجاه كتابهم المقدّس والنبيّ محمّد"[3]. وتنبيهه إلى أهمّيّة "التوفيق بين من فقد محبّة العالم الإسلاميّ الذي تختلف أفكاره، لا شكّ، عن أفكارنا. ولكن لا تنقصها الأصالة والرفعة"[4]. أشعّ التعليم الزيتونيّ في مؤتمر باريس من نوافذ خمس: 1.الأدب عند التونسيّين من الثوابت، 2. التعليم الإسلاميّ مداره على علوم القرآن، 3. إجلال علماء الزيتونة، 4. التذكير بمراعاة الخصوصيّات الثقافيّة، 5. الشهادة له من غير أهله.

***إشعاع القرويّين**:- جامع القرويّين في أدب الرحلة الفرنسيّ: دوّن إتيان ريشي (Étienne Richet) (1873-1929) رحلته إلى المغرب. ونقل مشاهداته متلقّطا أدقّ الجزئيّات. وقد تقاطع الوصف والتعليقات. فبدت عمليّة النقل ذات حرفيّة عالية. تتبّع ريشي المدن والمعالم الحضاريّة التي منحت المغرب الأقصى شهرته. ولم يكن لينسى المعلم التعليميّ الذي اخترق شهرته الآفاق. خصّص ريشي، إذن، الفصل الخامس عشر لجامع القرويّين. وذكّره فنّ عمارته الخارجيّة بمسجد قرطبة. غير أنّه أدرك تميّزه وفرادته. يقول: "... قُورِنَت القرويّين بجامع قرطبة. وهناك، لا شكّ، نقاط تشابه. ولكنّ المؤكّد أنّ القرويّين تتجاوز كلّ التخيّلات الغريبة القابلة للتصوّر. لا أعرف بعد أنغكور وات[5] (Angkor Wat) أيّ معبد أعجب منه"[6]. ينسج ريشي على امتداد صفحات ثمان لوحة ساحرة بخطاب استعاريّ عجيب ليصف القرويّين وصفا يبدو فريدا. ويقول منبهرا بمرآى مكوّنات الفضاء مأخوذا بسعته وتعدّد أروقته: "يتوه البصر المضطرب في ظلال غابة من الرخام السماقيّ والغرانيت والمرمر. ويطفو خلال مئات الأعمدة... تكوّن صفوف الأعمدة أكثر من ثلاثين رواقا يمكن لخمسة وعشرين ألف شخص أن يركع فيها..."[7]. إنّ وصفا مماثلا يدلّ على مدى أثر عمارة القرويّين فيه وشدّة وقعه عليه. وحين يدوّن مرئيّاته ويبوح بانفعالاته يكون قد احتفظ للقرويّين بمزيّتين: حفظ البيانات المعلم، ومزيّة تثمينه لا من أهله وإنّما من عيون فرنسيّة زائرة سائحة منذهلة. لقد نقل ريشي القرويّين إلى فرنسا قبل أن تأتي فرنسا إليها. فأشعّت، في أروبا، بفضاءاتها الساحرة وعراقتها البائنة.

[1] Ibid, p. 383.
[2] Idem.
[3] Idem.
[4] Ibid, p. 398.
[5] أنغكور وات: مجمع معابد في كمبوديا. وكان شيّده في القرن 12م الملك سرفرمان معبدا رسميّا للدولة.
[6] Richet, Étienne, ***Voyage au Maroc***, Paris, Vasseur & C[ie] 1909, p. 164.
[7] Idem.

ب–الاستقطاب

* **استقطاب الزيتونة**: استقطب جامع الزيتونة أعلاما من بلدان كثيرة. فأكبّوا على دراسته فنّيّا وتاريخيّا وعلميّا. ومن أمثلة الذين تلقّوا تعليمهم في الزيتونة من غير التونسيّين أعلام الجزائر وأرباب الإصلاح فيه. ومنهم نذكر عبد الحميد بن باديس(ت1940) الذي درس في الزيتونة ثمّ درّس فيها والذي راهن على تكوين طلبته على الزيتونة. إذ كان يوجّههم إليها. ولقد شهدت الساحة الزيتونيّة زيارة بعض المفكّرين الذين كان لهم أثر بيّن، يومها، في حركة الإصلاح عامّة وحركة الإصلاح التعليميّ خاصّة. ومن هؤلاء الأزهريّ محمّد عبده الذي زار تونس في مناسبتين. وكان لكلتا الزيارتين أثرها في علماء الزيتونة. ففي الزيارة الأولى توطّدت الروابط المعرفيّة بين محمّد عبده وبين العالمين سالم بوحاجب (ت1924) وصنوه محمّد النخلي (ت1924). وقد كانت بينهما وبينه مراسلات كثيرة ذات شأن. وأمّا زيارته الثانية (9–22 سبتمبر 1903) فقد تميّزت بإجراء اتّصالات عديدة. احتفى به القوم أيّما احتفاء. وحاضر هو في الجمعيّة الخلدونيّة.

*__استقطاب القرويّين__: استقطبت جامعة القرويّين، باعتبارها مؤسّسة تعليميّة دينيّة، اهتمام الكثير من زعماء الإصلاح و، كذلك، ثلّة من المستعربين[1]. فهذا ألبير عيّاش (Albert Ayache) (1905–1994) ينجذب إلى مسألة التعليم بالمغرب. فيخصّص الفصل الرابع من أطروحته[2] للنظر في وضع التعليم الدينيّ بالمغرب خلال القرن التاسع عشر، وتناول المسألة التعليميّة باعتبارها مبرّرا للنشاط الاستعماريّ.

وهو، إذ يعدّد محاضنه. كأنّه يشير إلى نوع من الاختصاص يتمثّل في ارتباط فضاء معيّن بعلم معيّن. لقد"... أصبح ترتيل القرآن في كتاتيب الأحياء والقرى والشروح الدينيّة والفقهيّة في الزوايا وفي مساجد المدن بمرّاكش والقرويّين بفاس هو ما يشكّل أساس الدراسة"[3]. نفهم من هذا التقسيم أنّ التعليم في تلك المرحلة من تاريخ المغرب يتأسّس، في مرحلة أولى وفي الأرياف، على ترتيل القرآن لا تفسيره، ثمّ تكون المرحلة الثانية التي يتلقّى فيها المتعلّم الشروح. ولكنّنا لا نجد مبرّرا لارتباط الشروح بالزوايا والمساجد وبالمدن. كما نرى خللا في التقسيم نرى نقصا في علوم الوسائل وخاصّة اللغة والمنطق. ويضيف عيّاش ما يراه علامة جمود وعدم مواكبة للعصر. إنّ الزمن يتقدّم والأوضاع تتبدّل ولكنّ التعليم القرويّينيّ باق على حاله يجترّ علومه دون أن يجدّدها. يقول عيّاش: "كما لم يقع تطبيق تقدّم حاسم خلال القرن التاسع عشر في ميدان العلوم البحتة والطبيعيّة أو في ميدان الطبّ"[4]. إنّ غياب علوم العصر عن التعليم الدينيّ، وقتها، يضاعف من تقليديّته وسلبيّته. فتنقطع صلته بالنماذج التعليميّة الجديدة التي أنبتتها حكومة الحماية دون أن تكون قادرة على وضع اليد على التعليم في

[1] من مؤلّفات المستعربين التي كادت تختصّ بجامعة القرويّين نذكر:
-Boris Maslow. ***Les Mosquées de Fès et du Nord du Marocain***, Paris, 1937.
-Henri Terrasse, ***La Mosquée al-Qaraouiyin à Fès***, Librairie C.Klincksiel, Paris, 1968.

[2] عيّاش، ألبير، **المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسيّة**، ترجمة: عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، مراجعة وتقديم: إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، ط 1، دار الخطابي للطباعة والنشر، 1985، ص 343.

[3] م. ن، ص. ن.

[4] م. ن، ص. ن.

القرويّين وما يعود إليها من مدارس بالنظر. وهذا تماما ما سجّله عيّاش حين قال:"غير أنّ سلطات الحماية عالجت تعليم المسلمين بتحفّظ كبير"[1].

ونظفر في هذا الفصل بمعلومات قيّمة حول ارتباط التعليم في المغرب إبّان القرن التاسع عشر بالزوايا. بل إنّها تؤمّن نوعيّة تعليم جيّدة: "... ونادرة هي القبائل التي لم تكن تتوفّر على زوايا يجري فيها التعليم بصورة جيّدة"[2]، تفضي إلى نتيجتين متعارضتين. الأولى تملّك القبائليّين تعليما يحميهم من تردّيات الجهل. والثانية توليد الكراهية والعداوة من لدن المستعمر. ولئن كان بديهيّا كره المتسلّط حيازة المتسلّط عليه سلاح العلم، فإنّ مصادر تاريخيّة كثيرة أكّدت قدرة المحتلّ على ترويض بعض القبائل وتوظيف بعض الزوايا. وأمّا ما لا يقبل الترويض فمآله "فرّق تسد": "وقد تعرّض أشهرها... للتشتيت من طرف السلطات الفرنسيّة لما كانت تمثّله عليها من خطر"[3].

لقد شقّق عيّاش أفكارا جوهريّة في التعليم المغربيّ المرتبط وقتها بالقرويّين. وما ذاك إلاّ على قدرة هذه المؤسّسة التعليميّة على استقطاب العقول الواعية والأقلام الجادّة لرسم بعض مكوّنا المشهد الحضاريّ. ولا يكون ذلك دون التأشير على مواضع الانخرام في التعليم.

الخاتمة: جملة استنتاجات نسوقها بعد محاولة النظر في مؤسّستين دينيّتين عريقتين حديثتين: زيتونة تونس وقرويّين المغرب من جهة المقارنة بينهما في الشأن التعليميّ، باعتباره آليّة تحفظ المعرفة وتنقلها، ووسيلة تحصّن الذات المغاربيّة ضدّ التصادم مع الآخر أو الذوبان فيه. 1-

تفيض وجوه التماثل بين المؤسّستين على وجوه التفارق. ولهذا مبرّراته التاريخيّة والجغرافيّة، خاصّة. فقد بان الائتلاف بينهما في نقاط أربع: أولاها:عراقة النشأة واستمرارها إلى هذا العصر. وثانيتهما: أنّهما كانتا تقدّمان، منذ نشأتهما وإلى حين فرض الحماية على بلدهما، تعليما رسميّا لم تنافسهما فيه سوى المدارس العصريّة التي أنشأها الاحتلال وتلك التي نحت نحوها. وثالثتهما: أنّهما خضعتا، عبر تاريخهما، لإصلاحات متعدّدة لم تكن دوما لتؤتي أكلها. وقد لحقت العمارة ومنظومة التعليم. ورابع تلك النقاط تتمثّل في حضورهما البيّن في أدبيّات العصر العربيّة والغربيّة. وقد كان للمستعربين حظّ وفير من ذلك. والنقطة الخامسة تحيل على حدود الفعل المعرفيّ. فرغم آلاف العلماء المتخرّجين من هاتين المؤسّستين ورغم انفتاحهما على النتاج المعرفيّ شرقا وغربا، لم يشهد القطران تونس والمغرب قفزة علميّة. ولا شكّ أنّ هذه المسألة لا تُعقد بالمؤسّستين وحدهما. إذ تشترك معهما في ذلك مؤسّسات أخرى، لعلّ أهمّها المؤسّسة السياسيّة المتنفّذة. وأمّا الاختلاف بينهما فيكاد ينحصر، هو الآخر في تاريخ البلدين وجغرافيّتهما. فقد كان لانفتاح القرويّين على علوم الأندلس ولاستقرار المغرب النسبيّ

[1] عيّاش، ألبير، **المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسيّة**، م. س.
Albert Ayache, ***Le Maroc : Bilan d'une colonisation*** (Coll. La culture et les hommes), Paris, Editions sociales, 1956,

[2] م. ن، ص 344.

[3] م. ن، ص. ن.

أثر، على ما يبدو، في طبيعة التعاطي الرصين والهادئ مع التغيّرات والاختلافات سواء في ذلك بين العلماء أو بينهم وبين ملوكهم. لم يكن المشهد نفسه في تونس التي كانت أقرب إلى بلدان الشرق شمالا وجنوبا. وقد كان لذلك أثره ولا سيّما في عهد البايات الذين عوّلوا كثيرا على علماء الزيتونة. فالتبس العلم بالسياسة[1].

2- تراجع دور كلّ من الزيتونة والقرويّين تجلّى في تحوّل هذا النوع من التعليم من مركز المشهد الحضاريّ التعليميّ إلى هامشه. وكان ذلك بفعل التطوّر الذي شهده العالم خاصّة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ولم تشهده المؤسّستان رغم تعدّد الخطط الإصلاحيّة المقترحة والمتحقّقة كلّيا أو جزئيّا.

3- كان التعليم في هاتين المؤسّستين وفي الفترة المقصودة بالنظر مأزوما. وأسباب الأزمة فيه تتراوح بين خارجيّ: ممارسة المتنفّذين من الساسة، وداخليّ: رؤية علمائها. ولعلّ أهمّها طبيعة الفكر الموجّه لها.

4- شهدت المؤسّستان نوعا من العلاقات العلميّة التي نشطت حينا وفترت حينا آخر. ما يهمّ الآن هو استثمار وجوه التماثل الكثيرة بين المؤسّستين والاشتغال بتعزيز التشبيك بين الدوائر الأكاديمية فيهما.

5- فتح أفق بحثيّ في شكل مقترح: إعادة النظر في المؤسّسة الدينيّة من وجهة نظر إناسيّة ثقافيّة كتلك التي طرحتها البريطانيّة المختصّة في علم الإناسة الثقافيّ ماري دوقلاس (Mary Douglas) (1921-2007) في كتابها **كيف تفكّر المؤسّسات؟**[2] الذي سعت فيه إلى التنظير للمؤسّسات انطلاقا من الجمع بين علم اجتماع دوركايم (Émile Durkheim) (1858-1917) وفلسفة العلوم عند لودويك فلاك (Ludwik Fleck) (1896-1961). وقد رحلت من المسلّمات إلى تساؤلات ثلاثة مثّلت إشكاليّة البحث: هل المؤسّسات تفكّر؟ وكيف تفكّر؟ وهل لها فكر خاصّ بها؟ إنّه مجال مفيد ومغر لا يتصدّى له بالبحث والتنقيب إلاّ أهل الاختصاص.

قائمة موارد البحث (دون اعتبار ألف ولام التعريف وابن وأبو)

(1) موارد باللسان العربيّ

ابن أبي دينار، محمّد، **المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس**، مطبعة الدولة التونسيّة بحاضرتها المحميّة، 1286هـ، ط1.

ابن أبي زرع، علي الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

ابن أبي الضياف، أحمد، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، الدار العربيّة للكتاب، 1999، ج1.

التازي، عبد الهادي، **جامع القرويّين :المسجد والجامعة بمدينة فاس: موسوعة لتاريخها المعماريّ والفكريّ**، ط 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1972.

[1] لا نجازف، قبل تدقيق البحث، في القول بأنّ ثلاثة قضايا يمكن أن تكوّن جوهر الاختلاف: الطرقيّة والسلفيّة والبربريّة. لا بدّ من الاحتراز العلميّ.

[2] Mary Douglas, ***How Institutions Think***, Syracuse University Press, 1986. (Traduction française : Mary Douglas, ***Comment pensent les institution***, Paris, La Découverte, 1999.)

الجابري، محمّد عابد، **الدين والدولة وتطبيق الشريعة**، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1996.

الجزنائيّ، علي، **جَنَى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية – الرباط، ط2، 1991.

الحجوي، محمّد بن الحسن، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلاميّ**، مطبعة دار المعارف بالرباط، 1340، هـ(1921) ثمّ مطبعة بلديّة فاس 1345هـ(1926)، ج 4.

الحشايشي، محمّد بن عثمان، **الهديّة في العادات التونسيّة**، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي ومحمّد العنّابي، المطبعة الرسميّة للجمهوريّة التونسيّة، 2002.

ابن الخوجة، محمّد، خزائن الكتب بجامع الزيتونة، المجلّة الزيتونيّة، عدد رمضان 1355هـ / نوفمبر 1936م، الجزء الثالث، المجلّد الأوّل.

ابن الخوجة، محمّد، **تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد**، تحقيق وتقديم: الجيلاني بن الحاج يحي ومحمّادي الساحلي، ط 2 ، دار الغرب الإسلامي، لبنان–بيروت، 1985.

ابن الخوجة مُحَمَّد، **صفحات من تاريخ تونس**، تقديم وتحقيق: حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

الدولاتي، عبد العزيز، **الزيتونة عشرة قرون من الفنّ المعماريّ التونسيّ**، تونس، 1966.

الزمرلي، الصادق، **أعلام تونسيّون**، ط1، تقديم وتعريب: حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت–لبنان، 1986.

ابن الشمّاع، **الأدلّة البيّنة النورانيّة في مفاخر الدولة الحفصيّة**، تحقيق وتقديم: الطاهر بن محمّد المعموري،الدار العربيّة للكتاب، 1984.

ابن عاشور، محمّد العزيز، **جامع الزيتونة: المعلم ورجاله**، دار سراس للنشر، تونس، 1991.

ابن عاشور، محمّد الطاهر، **أليس الصبح بقريب: التعليم العربيّ الإسلاميّ: دراسة تاريخيّة وآراء إصلاحيّة**، ط 1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة– دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 2006.

عبد الوهّاب، حسن حسني، **كتاب العمر في المصنّفات والمؤلّفين التونسيّين**، مراجعة وإكمال: محمّد العروسي المطوي وبشير البكّوش، ط 1، دار الغرب الإسلاميّ، 2005.

العقيقي، نجيب، **المستشرقون موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراساتهم**، دار المعارف، مصر، 1964.

العربي، عليّ، **الحاضرة**، كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، تونس، السلسلة 8، المجلّد 2، 1995.

العلواني، طه جابر، الجامعات الإسلاميّة وبناء علوم الأمة، مجلّة جامعة القرويّين العدد 11 1998/1419.

العوّا، محمّد سليم، أزمة المؤسّسة الدينيّة، ط1، القاهرة–مصر، دار الشروق، 1998.

عيّاش، ألبير، **المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسيّة**، ترجمة: عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، مراجعة وتقديم: إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، ط 1، دار الخطابي للطباعة والنشر، 1985.

قرفال، نجاة، **العلاقات العلميّة بين الزيتونة والقرويّين خلال القرنين 19 و20 الميلاديّين**، رسالة ماجستير، إشراف: الأستاذ نجم الدين الهنتاتيّ، نوقشت بجامعة الزيتونة، المعهد العالي للحضارة الإسلاميّة، السنة الجامعيّة: 2015–2016.

قرفال، نجاة، **سفراء الزيتونة والمغرب: الخطاب والأثر**، مداخلة قدّمت في ندوة: تاريخ الزيتونة في النصف الأوّل من القرن العشرين: الزيتونيّون في مواجهة قضايا عصرهم: وحدة بحث تاريخ الزيتونة، المعهد العالي للحضارة الإسلاميّة، جامعة الزيتونة، 29–30 نوفمبر 2016.

الكتّانيّ، محمّد المنتصر، **فاس عاصمة الأدارسة ورسائل أخرى**، ؟؟.

الكتّاني، عبد الكبير بن هاشم، **زهر الآس في بيوتات أهل فاس**، تحقيق: علي بن المنتصر الكتّاني، منشورات مطبعة النجاح، الدر البيضاء، ط1، 2002، ج1.

لابي، بول، **تعليم المنطق بالجامع الأعظم**، (ترجمة البشير صفر)، جريدة الحاضرة عدد 337، 26 فيفري 1895.

مجهول، **المسألة المنطقيّة**، جريدة الزهرة عدد 215، 31 مارس 1895.

ابن منصور، الصحبي، **الزيتونة: التاريخ وهامشه: قراءة تفكيكيّة في الظاهرة الزيتونيّة من النشأة إلى الإصلاح**. مركز الدراسات الإسلاميّة بالقيروان/ مجمع الأطرش للكتاب المختصّ، تونس 2016.

مرّي، نعيمة، معالم ومظاهر التاريخ الفكريّ والثقافيّ للقرويّين، دعوة الحقّ، مج 43، عدد 364، (1422/ 2002)

النبهان، فارق، أثر جامعة القرويين في تكوين الشخصية المغربية، مجلّة جامعة القرويين العدد 11 1998/1419.

(2) موارد بغير اللسان العربيّ:

Ayache, Albert , ***Le Maroc : Bilan d'une colonisation*** (Coll. La culture et les hommes), Paris, Editions sociales, 1956.
Douglas, Mary, **How Institutions Think**, Syracuse University Press, 1986. (Traduction française : Mary Douglas, ***Comment pensent les institution***, Paris, La Découverte, 1999.)
Lapie, Paul, ***L'enseignement de la logique à l'université musulmane de Tunis***, *Revue Tunisienne*, A 2, N°6, 1895, p. 124-131.
Machuel, Louis, ***Manuel de l'arabisant, ou Recueil de pièces arabes***, Édition : Alger : A. Jourdan, 1877.
Machuel, Louis, ***L'enseignement publique en Tunisie***, *Revue Pédagogique,* T VII, Paris, 1885, pp. 46-47.
Machuel, Louis, ***L'enseignement public dans la régence de Tunis***, Paris. Imprimerie Nationale, 1889.
Machuel, Louis, ***L'enseignement musulman*** **en Tunisie**, *Revue Tunisienne*, T IV, 1897, pp. 338-.
Richet, Étienne, **Voyage au Maroc**, Paris, Vasseur & C[ie] 1909.

(3) مواقع رقميّة:

زينون، ياسين، إصلاح التعليم المغربيّ من منظور مُحَمَّد بن الحسن الحجوي، مؤمنون بلا حدود، الفلسفة والعلوم الإنسانية. 01 فبراير 2018.
http://www.mominoun.com/articles/5624
الموسوعة التونسيّة المفتوحة: موقع رقميّ: http://www.mawsouaa.tn
بن وجب، محمّد، **مدارس مدينة تونس في كتاب عليّ فاخر**، نشر في الصباح يوم 26 – 08 – 2007.
https://www.turess.com/assabah/2726
السيّد، رضوان، **المؤسسات الدينية وسياسات الدين والدولة**، الشرق الأوسط، عدد: 13191، 09 يناير 2015.
https://aawsat.com/home/article/261811/

الملحق:

الجدول الأوّل: بعض فروع الزيتونة: (المصدر: بن الخوجة، محمّد، **تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد**.)

المدرسة	مؤسّسها	ملاحظات
1.المدرسة التوفيقيّة	السلطان الحفصيّ أبو زكريّاء يحيى الأوّل	ق7 هـ: هي أوّل مدرسة زيتونيّة تمّ بناؤها في مدينة تونس بسوق البلاغجيّة.
2.المدرسة الشمّاعيّة	الأميرة عطف زوجة السلطان أبي زكرياء الحفصيّ	ق7هـ: مدرسة جامع الهواء. وأصبحت، 1995 المعهد العالي للحضارة الإسلاميّة
3.المدرسة العصفوريّة	الجالية الأندلسيّة بتونس	الدولة الحفصيّة، سوق العطّارين نسبة إلى ابن عصفور الأشبيليّ
4.المدرسة العنقيّة	الأميرة فاطمة	ق8هـ
5.المدرسة الأندلسيّة	الجالية الأندلسية	قدمت إلى تونس بعد قرار الطرد النهائي عام 1609.
6.المدرسة المراديّة	في العهد المراديّ	ق11هـ: تسمّى مدرسة التوبة. سوق القماش.المدخل الغربيّ لجامع الزيتونة
7.المدرسة الحسينية الكبرى	عليّ باشا	تسمّى أيضا مدرسة تربة الباي
8.مدرسة النخلة	حسين بن علي	ما تزال قائمة للعلم.
9.المدرسة الخلدونيّة	قدماء الصادقيّة وعلماء جامع الزيتونة	1896: ذات طابع تجديديّ
10.مدرسة البنت المسلمة	محمّد صالح النيفر	1947: المعهد الثانوي نهج الباشا حاليّا.

الجدول الثاني: بعض فروع القرويّين:(المصدر: التازي: **جامع القرويّين**، ومحمّد المنتصر، **فاس عاصمة الأدارسة ورسائل أخرى**.)

المدرسة	مؤسّسها	ملاحظات
1. مدرسة المرابطين	يوسف بن تاشفين (ت500هـ).	ق5هـ: مدرسة الصابرين ومدرسة أبي مدين في الحاضر.
2. مدرسة الحلفاويين	السلطان أبو يوسف المريني	ق7هـ: وتعرف اليوم بمدرسة الصفارين.
3. المدرسة البيضاء	السلطان أبو سعيد المريني	ق8هـ: مدرسة المدينة البيضاء ومدرسة فاس الجديد
4.مدرسة جامع الأندلس	أبو الحسن المريني	ق8هـ:
5.مدرسة العطارين	السلطان أبو سعيد المريني	ق8هـ
6. مدرسة الصهريج	السلطان أبو سعيد المريني	ق8هـ
7. مدرسة الرخام	السلطان أبو الحسن المريني	وتسمّى كذلك المدرسة المصباحيّة
8. المدرسة العنانيّة	السلطان أبو عنان المريني	كانت تسمّى المدرسة المتوكّليّة
9. مدرسة الشرّاطين	السلطان الرشيد العلوي	ق11هـ
10. مدرسة باب الجيسة	السلطان مُحَمَّد العلويّ	ق 12هـ